الباب الرابع

والآن نعيش مع بعض القصص التي تجلي لنا هذا المعنى

فإن للقصة أثرًا عميقًا في النفوس؛ لما تحتويه من عناصر التشويق، وجوانب الاعتبار والاتعاظ، وهي وسيلة يستخدمها الدعاة، والهداة، والمصلحون للوصول إلى قلوب الناس وعقولهم؛ كي يرتقوا بهم من الظلمات إلى النور، ويأخذوا بأيديهم إلى الطريق القويم، فيسلموا وجوههم لله عَزَّوَجَلَّ.

ولا ينتفع بهذا القصص إلا أصحاب القلوب التقية النقية وأصحاب الفطر والعقول السوية.. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١].

فمن خلال القصص تظهر السنن الربانية واضحة جلية حيث يجعل الله عَزَّوَجَلَّ النصر والتمكين للمؤمنين ويجعل الهلاك والعذاب والنكال للكافرين والمكذبين كما قال رب العالمين: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

فالقصص وسيلة عظيمة من وسائل تربية الأمة وتثبيتها على طريق الحق.

ومن أهداف القصص:

- تنبيه الإنسان من الغفلة والرقود، وإبعاده عن مهاوي الانحراف والسقوط.
- التحذير من أخطار البعد عن الاستقامة، والصلاح والحق.
- تصويب مناهج الآداب والسلوك، والدفع إلى الحياة الإيجابية بهمة وعزيمة.
- تصحيح العقيدة، وغرس بذور الإيمان بالله ربًّا واحدًا.

۞ تربية النفس، وتقويم السلوك، وغرس الشعور الفياض بالإيمان المتوقد بمشاعر الود والخير.

۞ التذكير بأحداث الأمم الغابرة والأقوام البائدة، الذين تنكبوا عن صراط الهداية، وهدي الأنبياء والمصلحين.

۞ بيان حسن عاقبة المؤمنين؛ الذين ثبتوا على الحق، وابتعدوا عن الباطل، وتابوا توبة صادقة، وشكروا الله على نعمه؛ بأن استعملوها بما يرضي الله تعالى.

۞ بيان سوء عاقبة المكذبين؛ الذين أصروا على كفرهم واستحبوا العمى على الهدى، وجحدوا نعم الله بأن استعملوها فيما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ[1].

(١) «قصص القرآن» مجموعة علماء.

الكلب والديك والحمار

قال مسروق:

كان رجل بالبادية له حمار وكلب وديك، وكان الديك يوقظهم للصلاة، والكلب يحرسهم، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خيامهم.

فجاء الثعلب، فأخذ الديك، فحزنوا له، وكان الرجل صالحًا، فقال: عسى أن يكون خيرًا.

ثم جاء الذئب بعد ذلك، فخرق بطن الحمار فقتله، فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا.

ثم أصيب الكلب بعد ذلك، فقال: عسى أن يكون خيرًا.

ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا، فإذا قد سُبي مَن كان حولهم وبقوا سالمين، وإنما أُخذوا أولئك بما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة، فكانت الخيرة في هلاك ما كان عندهم من ذلك، كما قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن عرف خفيّ لطف الله رضي بفعله[1].

(١) «حياة الحيوان» للدميري (٣/ ٤١١).

فربما صحّت الأجسامُ بالعللِ

ذكر أهل السِّير: أن رجلًا أصابه الشلل، فأُقعد في بيته، ومرت عليه سنوات طوال من الملل واليأس والإحباط، وعجز الأطباء في علاجه، وبلَّغوا أهله وأبناءه، وفي ذات يوم نزلت عليه عقرب من سقف منزله، ولم يستطع أن يتحرك من مكانه، فأتت إلى رأسه وضربته برأسها ضربات ولدغته لدغاتٍ، فاهتز جسمه من أخمص قدميه إلى مشاش رأسه، وإذا بالحياة تدبُّ في أعضائه، وإذا بالبُرء والشفاء يسير في أنحاء جسمه، وينتفض الرجل ويعود نشيطًا، ثم يقف على قدميه، ثم يمشي في غرفته، ثم يفتح بابه، ويأتي أهلَه وأطفاله، فإذا الرجل واقفًا، فما كانوا يصدِّقون، وكادوا من الذهول يُصعَقون، فأخبرهم الخبر.

فسبحانه مقدر الأقدار، جعل علاج هذا الرجل في لدغ العقرب.

books4all.net

وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها

يُحكى أن ابن أبشاذ النحْوي كان يومًا على سطح جامع مصر وهو يأكل شيئًا وعنده ناس، فحضرهم قِطٌّ فقدموا له لقمة فأخذها في فمه وغاب عنهم ثم عاد إليهم، فرموا له شيئًا آخر ففعل كذلك وتردد مرارًا وهم يرمون له وهو يأخذه ويغيب، ثم يعود من فوره حتى عجبوا من ذلك القط، وعلموا أن مثل هذا الطعام لا يأكله وحده لكثرته، فلما شكُّوا في أمره تبعوه فوجدوه يصعد إلى حائط في سطح الجامع، ثم ينزل إلى موضع بين خراب وفيه قط آخر أعمى وكل ما يأخذه من الطعام يحمله إلى ذلك القط ويضعه بين يديه وهو يأكله.

فعجبوا من تلك الحال، فقال ابن أبشاذ: إذا كان هذا حيوان أخرس قد سخَّر الله له هذا القط وهو يقوم بكفايته ولم يحرمه الرزق فكيف يضيع مثلي؟!!

رأى رجل عصفورًا صغيرًا يحمل طعامًا في فمه ويصعد إلى نخلة عالية ثم يرجع ويأخذ طعامًا ويصعد به إلى تلك النخلة فصعد الرجل إلى بناية عالية ليرى ما يصنع ذلك العصفور فإذا به يرى العصفور قد وقف أمام حية عمياء ويصدر لها صوتًا فتفتح فمها فيضع لها الطعام في فمها فتعجب الرجل وقال: إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ سخر عصفورًا لتلك الحية فكيف أحمل هَمَّ الرزق وأنا موحدٌ لله جَلَّوَعَلَا.

لعله خير

كان هناك ملك من الملوك وكان له وزير صالح لا يحدث أمر إلا قال: لعله خير. فحدث أن قطع أصبع الملك فقال الوزير: لعله خير. فغضب الملك غضبًا شديدًا وأمر بحبسه فقال الوزير: لعله خير. وحدث أن خرج الملك في نزهة للصيد ومعه حاشيته. وكان الملك يطارد صيدًا فأعياه الصيد وأخذ الملك يطارده حتى ابتعد عن حاشيته ولم يتمكن من صيده. وإذا به يدخل بلدة. وكان من عادات أهل هذه البلدة أن لهم يومًا يحتفلون فيه كل سنة وأول من يدخل عليهم البلد يذبحونه قربانًا لآلهتهم، فكان الداخل هو الملك فقبضوا عليه ليذبحوه فتوسل إليهم وأخبرهم أنه ملك فلم يستمعوا لكلامه فلما أرادوا ذبحه وجدوا أن أصبعه مقطوع فتركوه؛ لأن من طقوسهم أن من يقدم للآلهة لابد أن يكون كامل الأعضاء. فعاد إلى حاشيته الذين كانوا يبحثون عنه. فلما عاد إلى قصره أخرج الوزير من السجن وقص عليه ما حدث وقال: هذا خير لي. قطع أصبعي ولكن كيف يكون سجنك خيرًا لك. فقال الوزير: يا مولانا السجن كان خيرًا لي لأني لا أفارقك في أي مكان ولو كنت معك في الصيد، لذبحوني قربانًا للآلهة لأني كامل الأعضاء.

عدالة السماء

كان نبي من الأنبياء يجلس على رأس جبل وفي أسفل الجبل عين ماء فجاء فارس على جواد فنزل فشرب من البئر ثم انصرف، ثم جاء بعده رجل فشرب فلما خرج من البئر إذا به يجد، كيس نقود - وقع من الفارس - فأخذه ثم انصرف. والنبي ينظر، ثم جاء شيخ كبير فنزل فشرب ثم خرج وجلس على حافة البئر. فعاد الفارس يبحث عن نقوده، فوجد الشيخ عند البئر فسأله عن المال فقال: لم أجد شيئًا، فقال له الفارس: هات المال وإلا ضربت عنقك، فقال الشيخ: لم آخذ شيئًا فقتله الفارس بسيفه ثم انصرف فتعجب النبي وقال: يا رب يقتل البريء وينجو الآخذ فأوحى الله إليه.. أني فعلت ذلك لحكمة: أما الرجل الذي قُتل فإنه قتل أبا الفارس فاقتصصت منه، وأما الذي أخذ المال فإن أبا الفارس قد أخذ مال أبيه فيما مضى فرددت المال إلى ابنه.

الطائر وأصحاب السفينة

روي أن امرأة دخلت على داود عليه السلام فقالت: يا نبي الله، ربك ظالم أم عادل؟

فقال داود عليه السلام: ويحك يا امرأة، هو العدل الذي لا يجور، ثم قال لها: ما قصتك؟

قالت: أنا أرملة عندي ثلاث بنات، أقوم عليهن من غزل يدي، فلما اشتدت غزلي في خرقة حمراء، وأردت أن أذهب إلى السوق لأبيعه، وأبلغ به أطفالي، فإذا أنا بطائر قد انقضَّ عليَّ وأخذ الخرقة والغزل وذهب، وبقيت حزينة لا أملك شيئًا حتى أبلغ به أطفالي.

فبينما المرأة مع داود عليه السلام في الكلام، وإذا بالباب يُطرق على داود، فأذن بالدخول، وإذا بعشرة من التجار كل واحد بيده مائة دينار.

فقالوا: يا نبي الله أعطها لمستحقها.

فقال لهم داود عليه السلام: ما كان سبب هلكم هذا المال؟

قالوا: يا نبي الله، كنا في مركب فهاجت علينا الريح وأشرفنا على الغرق فإذا بطائر قد ألقى علينا خرقة حمراء وفيها غزل، فسددنا به عيب المركب، فهانت علينا الريح، وانسدَّ العيب ونذرنا لله أن يتصدق كل واحد منا بمائة دينار، وهذا المال بين يديك فتصدق به على من أردت.

فالتفت داود عليه السلام إلى المرأة، وقال لها: رَبٌّ يتجر لك في البر والبحر وتجعلينه ظالمًا، وأعطاها الألف دينار، وقال: أنفقيها على أطفالك[1].

---

(١) «أنيس الصالحين».

قصة الحية والسكران

عن يوسف بن الحسين يقول: كنت مع ذي النون المصري على شاطئ غدير فنظرت إلى عقرب أعظم ما يكون على شط الغدير واقفة، فإذا بضفدع قد خرجت من الغدير، فركبتها العقرب، فجعلت الضفدع تسبح حتى عبرت، فقال ذو النون: إن لهذا العقرب لشأنًا فامض بنا، فجعلنا نقفو أثرها؛ فإذا رجل نائم سكران، وإذا حية قد جاءت فصعدت من ناحية سُرته إلى صدره وهي تطلب أذنه، فاستحكمت العقرب من الحية فضربتها، فانقلبت وانفسخت، ورجعت العقرب إلى الغدير، فجاءت الضفدع فركبتها فعبرت، فحرك ذو النون الرجل النائم، ففتح عينيه، فقال: يا فتى! انظر مما نجاك الله!، هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التي أرادتك، ثم أنشأ ذو النون يقول:

يا غافلًا والجليل يحرسه ... من كل سوء يدب في الظُّلَمِ

كيف تنام العيون عن ملك ... تأتيه منه فوائد النِّعَمِ

فنهض الشاب وقال: إلهي! هذا فعلك بمن عصاك!، فكيف رفقك بمن يطيعك؟، ثم ولى، فقلت: إلى أين؟ قال: إلى طاعة الله.

ويرزقه من حيث لا يحتسب

دخل أحد السلف أحد المزارع وكان جائعًا متعبًا فشدته نفسه لأن يأكل وبدأت المعدة تقرقر، فأطلق عينيه في الأشجار فرأى تفاحة، فمد يده إليها ثم أكل نصفها بحفظ الله ورعايته ثم شرب من ماء النهر بجانب المزرعة، لكن انتبه بعد ذلك من غفلته بسبب الجوع وقال لنفسه: ويحك كيف تأكل من ثمار غيرك دون استئذان وأقسم ألا يرحل حتى يدرك صاحب المزرعة يطلب منه أن يحلل له ما أكل من هذه التفاحة فبحث حتى وجد داره فطرق عليه الباب فلما خرج صاحب المزرعة استفسر عن ما يريد، قال صاحبنا: دخلت بستانك الذي بجوار النهر وأخذت هذه التفاحة وأكلت نصفها ثم تذكرت أنها ليست لي وأريد منك أن تعذرني في أكلها وأن تسامحني عن هذا الخطأ فقال الرجل: لا أسامحك، ولا أسمح لك أبدًا إلا بشرط واحد، قال صاحبنا: وهو (ثابت ابن النعمان): وما هو هذا الشرط؟ قال صاحب المزرعة: أن تتزوج ابنتي، قال ثابت: أتزوجها، قال الرجل: ولكن انتبه أن ابنتي عمياء لا تبصر، خرساء لا تتكلم، وصماء لا تسمع، وبدأ ثابت بن النعمان يفكر - أنعم بها من ورطة - ماذا يفعل؟ ثم علم أن الابتلاء بهذه المرأة وشأنها وتربيتها وخدماتها خير من أن يأكل الصديد في جهنم جزاء ما أكله من التفاحة وما الأيام وما الدنيا إلا أيامًا معدودات، فقبل الزواج على مضض وهو يحتسب الأجر والثواب من الله رب العالمين.

وجاء يوم الزفاف وقد غلب الهم على صاحبنا كيف أدخل على امرأة لا تتكلم ولا تبصر ولا تسمع فاضطرب حاله وتمنى أن لو تبتلعه الأرض قبل هذه الحادثة ولكنه توكل على الله وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، ودخل عليها يوم الزفاف فإذا بهذه المرأة تقوم إليه وتقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فلما نظر إليها تذكر ما يتخيله عن الحور العين في الجنة. قال بعد صمت: ما هذا؟ إنها تتكلم وتسمع

وتبصر فأخبرها بما قال عنها أبوها قالت: صدق أبي ولم يكذب، قال: اصدقيني الخبر، قالت: أبي قال عني إنني خرساء لأنني لم أتكلم بكلمة حرام، ولا تكلمت مع رجل لا يحل لي، وإنني صماء لأنني ما جلست في مجلس فيه غيبة ونميمة ولغو، وإنني عمياء لأني لم أنظر إلى أي رجل لا يحل لي.

فانظروا واعتبر بحال هذا الرجل التقي وهذه المرأة التقية وكيف جمع الله بينهما.

obeikandl.com

سمكة تنقذ رجلا

قال علي بن حرب:

أردت أن أسافر من بلدي الموصل إلى بلدة أخرى لشراء بعض البضاعة، وكانت هناك سفن تسير في نهر دجلة من الموصل إلى البلدة الأخرى تنقل الركاب والبضاعة بالأجر، فركبت إحدى هذه السفن، وسرنا في نهر دجلة متجهين نحو تلك البلدة.

وكان في السفينة بعض البضاعة، ونفر من الرجال لا يتجاوز الخمسة، وكان النهار صحوًا والجو جميلًا والنهر هادئًا والربان يحدو ويغني غناءً جميلًا والسفينة تسير على صفحة الماء سيرًا هادئًا، حتى أخذت أكثرنا غفوة من النوم، وفجأة رأيت سمكة كبيرة تقفز من النهر داخل السفينة، فهجمت عليها، وأمسكت بها قبل أن تعود إلى النهر مرة أخرى.

وانتبه الرجال من غفوتهم بسبب الضجة التي حصلت وعندما رأوا السمكة، قال أحدهم: هذه السمكة أرسلها الله تعالى إلينا، لماذا لا ننزل بها إلى الشاطئ فنشويها ونأكلها وهي كبيرة تكفينا جميعًا، فأعجبنا رأيه، ووافق الربان على ذلك فمال بنا إلى الشاطئ ونزلنا، واتجهنا إلى دغل[1] من الشجر لنجمع الحطب ونشوي السمكة.

وما أن دخلنا الدغل فوجئنا بمنظر اقشعرت منه جلودنا، فوجئنا برجل مذبوح وإلى جانبه سكين حادة على الأرض، ورجل آخر مكتوف بحبل قوي وحول فمه منديل يمنعه من الكلام والصراخ، فاندهشنا من هذا المنظر فمن قتل القتيل ما دام الرجل مكتوفًا؟

أسرعنا أولًا فحللنا رباط الرجل ورفعنا المنديل عن فمه، وكان في أقصى درجات الخوف واليأس، وعندما تكلم قال: أرجوكم أن تعطوني قليلًا من الماء أشربه أولًا فسقيناه.

---

(١) الدغل: الشجر الكثير.

وبعد أن هدأ قليلًا، قال: كنت أنا وهذا الرجل القتيل في القافلة التي تسير من الموصل إلى بغداد والظاهر أن القتيل لاحظ أن معي مالًا كثيرًا، فصار يتودد إليَّ، ويقترب مني، ولا يفارقني إلا قليلًا، حتى نزلت القافلة في هذا المكان لنستريح قليلًا، وفي آخر الليل استأنفت القافلة السير، وكنت نائمًا فلم أشعر بها، وبعد أن سارت القافلة، استغل هذا الرجل نومي، وربطني بالحبل كما رأيتم ووضع حول فمي منديلًا لكي لا أصرخ، ثم رماني إلى الأرض، وجلس فوقي يريد أن يذبحني، وهو يقول: إن تركتك حيًّا فإنك ستلاحقني وتفضحني؛ لذلك لابد من ذبحك.

وكان معه سكين حادة يضعها في وسطه، وهي هذه السكين التي ترونها على الأرض وأراد سحب السكين من وسطه ليذبحني بها، لكنها علقت بحزامه، فصار يعالجها ثم نترها بقوة، وكان حدها إلى أعلى، فخرجت بقوة، واصطدمت بعنقه وقطعت الجلد واللحم والشريان، فتدفق الدم منه، وخارت قواه، ثم سقط ميتًا، وحتى بعد موته كنت موقنًا بالموت؛ لأن هذا المكان منقطع لا يأتيه أحد إلا قليلًا، فمن يفكني ومن ينقذني؟

وصرت أدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرسل من ينقذني مما أنا فيه، فأنا مظلوم ودعاء المظلوم لا يُرد، وإذا بكم تأتون وتنقذوني مما أنا فيه، فما الذي جاء بكم في هذه الساعة إلى هذا المكان المنقطع؟

فقالوا له: الذي جاء بنا هو هذه السمكة، وحكوا له كيف قفزت من الماء إلى السفينة فأتوا بها إلى هذا المكان؛ لكي يشووها ويأكلوها.

فتعجب من ذلك، وقال: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أرسل هذه السمكة إليكم؛ لكي يجعلكم تأتون إلى هذا المكان، وتخلصوني مما أنا فيه، والآن إنني مُتْعَب جدًّا أرجوكم أن تأخذوني إلى أقرب بلدة.

فصرفوا النظر عن شي السمكة وأكلها، وأخذوا الرجل بعدما حمل معه المال الذي سلبه الرجل الآخر منه وعادوا به إلى السفينة وما أن وصلوا السفينة، حتى قفزت السمكة إلى الماء، وعادت إلى النهر مرة أخرى، فكأنما قد أرسلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقًّا؛ لكي تكون سببًا في إنقاذ الرجل المظلوم.

وكذا إذا أراد الله شيئًا هيأ أسبابه[1].

(١) «طبقات الأولياء» (١٨٠، ١٨١).

obeikandl.com

من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه

قال القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد البزار الأنصاري المتوفَّى سنة [٥٣٥هـ] ببغداد:

كنت مجاورًا بمكة حرسها الله تعالى، فأصابني يومًا من الأيام جوع شديد لم أجد شيئًا أدفع به عني الجوع، فوجدت كيسًا من أبريسم مشدودًا بشرابة من إبريسم أيضًا فأخذته وجئت به إلى بيتي، فحللته فوجدت فيه عقدًا من لؤلؤ لم أر مثله.

فخرجت فإذا بشيخ ينادي عليه، ومعه خرقة فيها خمسمائة دينار، وهو يقول: هذا لمن يرد علينا الكيس الذي فيه اللؤلؤ، فقلت: أنا محتاج، وأنا جائع، فآخذ هذا الذهب فأنتفع به، وأرد عليه الكيس.

فقلت له: تعال إلي، فأخذته وجئت به إلى بيتي، فأعطاني علامة الكيس، وعلامة الشرابة، وعلامة اللؤلؤ وعدده، والخيط الذي هو مشدود به، فأخرجته ودفعته إليه، فسلم إلي الخمسمائة دينار، فما أخذتها، وقلت: يجب علي أن أعيده إليك، ولا آخذ له جزاءًا، فقال لي: لابد أن تأخذ وألح عليَّ كثيرًا، فلم أقبل ذلك منه فتركني ومضى.

وأما ما كان مني، فإني خرجت من مكة وركبت البحر، فانكسر المركب وغرق الناس، وهلكت أموالهم، وسلمت أنا على قطعة من المركب، فبقيت مدة في البحر لا أدري أين أذهب؟ فوصلت إلى جزيرة فيها قوم، فقعدت في بعض المساجد، فسمعوني أقرأ، فلم يبق في تلك الجزيرة أحد إلا جاء إليَّ وقال: علِّمني القرءان، فحصل لي من أولئك القوم شيء كثير من المال.

ثم إني رأيت في ذلك المسجد أوراقًا من مصحف، فأخذتها وقرأت فيها، فقالوا لي: تحسن تكتب؟ فقلت: نعم، فقالوا: علِّمنا الخط، فجاءوا بأولادهم من الصبيان

والشباب، فكنت أعلمهم، فحصل لي أيضًا من ذلك شيء كثير، فقالوا لي بعد ذلك: عندنا صبية يتيمة، ولها شيء من الدنيا، نريد أن تتزوج بها، فامتنعت، فقالوا: لابد، وألزموني فأجبتهم إلى ذلك.

فلما زفُّوها إليَّ مددت عيني أنظر إليها، فوجدت ذلك العقد بعينه معلقًا في عنقها، فما كان لي حينئذٍ شغل إلا النظر إليه، فقالوا: يا شيخ كسرت قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا العقد، ولم تنظر إليها، فقصصت عليهم قصة العقد، فصاحوا وصرخوا بالتهليل والتكبير، حتى بلغ إلى جميع أهل الجزيرة، فقلت: ما بكم؟ فقالوا: ذلك الشيخ الذي أخذ منك العقد أبو هذه الصبية، وكان يقول: ما وجدت في الدنيا مسلمًا أفضل من هذا الذي رد عليَّ هذا العقد.

وكان يدعو ويقول: اللهم اجمع بيني وبينه حتى أزوِّجه بابنتي، والآن قد حصلت، فبقيت معها مدة، ورزقت منها بولدين.

ثم إنها ماتت فورثت العقد أنا وولداي، ثم مات الولدان، فحصل العقد لي، فبعته بمائة ألف دينار، وهذا المال الذي ترونه معي من بقايا ذلك المال.

إنه درس عظيم: إنه من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

ثمن البقرة

باع بقرته التي لا يمتلك سواها بثلاثة آلاف ليرة، وقبض الثمن، ووضعه في كيس، ثم دسه في وسطه.. وتوجَّه إلى منزله وعليه علامات الحزن والحسرة، وعلمت زوجُه ببيع البقرة التي يمتلكونها، فأخذت تُعزيه عن فقدها وتُمنيه بأن الله سيعوِّض عليهم بأحسن منها.

وجاء الليل، وآوى الناس إلى منازلهم من شدة البرد، وجلس الرجل «أبو حسن» وزوجه في غرفتها المتواضعة، وبينما كانت أم حسن تُعلِّل طفلها بالرضاع الكاذب؛ لتحمله على الفطام، إذا بطرقات خفيفة على باب الدار، وفتح أبو حسن الباب، فإذا برجل يرتجف من شدة البرد والمطر، يقول: غريب ألجأني البرد إلى قريتكم، ولا أعرف بها أحدًا، وأنا في طريقي إلى مدينة حمص.

فقال أبو حسن: ماذا نستطيع أن نقدِّم لك، ونحن أسرة فقيرة، وبيتنا ضيق، لا يُساعدنا على استقبال الضيوف.

فقال الغريب: أرجوكم البرد شديد اسمحوا لي فقط بالمبيت عندكم حتى الصباح، ولا أريد أن أُكلفكم أية نفقة.

فقال أبو حسن: ليس لدينا سوى هذه الغرفة أنام بها أنا وزوجي وطفلنا الصغير؛ فاعذرنا لعدم وجود مكان لك.

فقال الغريب: أنام في هذه الزاوية، وتنامون أنتم في الجانب الآخر، ويُمكنكم أن تضعوا بيننا حاجزًا، وأجركم على الله.

رقَّ قلب أم حسن لهذا الغريب، وقالت: يُعيننا الله يا أبا الحسن، ولعله يرد عنا المصائب بحسنة هذا الضيف الغريب..

ورحَّبا بالضيف، ثم قام كلٌّ إلى فراشه بعد أن أعدُّوا للضيف ما وجدوا من غطاء وفراش، وما لبث أبو حسن وزوجه أن غطَّوا في نومهم، فقد أجهدهم التعب والسهر، كان الغريب يرقب أهل الدار حتى تيقَّن أنهم استغرقوا في نومهم، وإلى جانبهم طفلهم الرضيع، فقام الغريب من فراشه على أطراف أصابعه، وراح يتحسَّس موضع الطفل، فحمله وخرج به من الغرفة، ووضعه بعيدًا في فناء الدار.. وعاد إلى فراشه، وتظاهر بالنوم.

وأحسّ الطفل بلسع البرد، فراح يبكي، فاستيقظت أم حسن على بكائه، وتحسست فراش الطفل، فلم تجده فيه، فأيقظت زوجها، وقالت له: لقد جبا الطفل إلى فناء الدار، قُم بنا نعيده إلى فراشه قبل أن يضره البرد.

فقاما حتى وصلا إلى الطفل، وانحنت عليه أمه، وضمَّته إلى صدرها وهي تقول: لهفي عليك يا ولدي ما الذي أخرجك من فراشك في هذا البرد الشديد؟

وما كاد أبو حسن وزوجه يتَّجهان بطفلهما نحو الغرفة حتى خرَّ السقف، وانهدمت الدار، فوقفا واجمين، وسمع الجيران قرقعة الخشب، وسقوط السقف، فجاؤوا ليُسهِمُوا بالإنقاذ، فقال أبو الحسن: يا ناس: عندنا ضيف داخل الدار، يجب أن ننقذه قبل كل شيء.

ودخل أبو حسن بصحبة بعض الجيران، وسَعَوْا إلى موضع الضيف، فلم يجدوه، فأخذوا يرفعون الأنقاض حتى وصلوا إلى سرير أبي حسن، وإذا بالضيف ميتًا تحت الأنقاض وبيده كيس النقود، وقد أخرجه من تحت الوسادة التي ينام عليها صاحب الدار.

كان هذا اللص قد حضر السوق، ورأى أبا حسن وهو يبيع البقرة، ويضع ثمنها في الكيس، فقرَّر سرقة الثمن، ورسم الخطة لاختلاس المال، وتبع أثر صاحب البقرة من

بعيد حتى رآه يدخل الدار، فلما أذنوا له بالمبيت حمل الطفل ليلًا إلى خارج الدار، وتركه يبكي ليخرج أهله إليه، وعندما يخرج يتسنَّى له أخذ الكيس فيه ثمن البقرة، وقد رأى أبا حسن يدسه تحت الوسادة.

كان اللص يضع الخطة، وكان الله له بالمرصاد، فما كاد يُنفذ خطته حتى يأذن الله أن يتعجَّل بالعقاب لهذا الماكر الشرير، مُنكر الجميل، وأن يُنقذ الطفل وأهله من سوء المصير، فأوحى إلى الطبيعة، فثارت ثورتها، وسقط السَّقف على اللص، فقضى نحبه تحت الأنقاض، فإن غفل الإنسان لا تغفل يدُ الله، وانصرف الناس، وهم يقولون: هذا مثل الجزاء السريع للذنب الفظيع.

وحقًّا إن في ذلك لعبرةً لمن كان له قلب[1][2].

(١) مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].
(٢) «أنيس الصالحين» ص (٢٣، ٢٤).

أردت عمرًا وأراد الله خارجة

كان تاجرًا متوسط الثراء، وكان يعمل بشراء الأبقار من العراق، أو من إيران، ثم ينتقل بها هو ورجاله مرحلة مرحلة حتى يصل إلى سورية ولبنان، وقد يصل إلى مصر؛ ليبيع ما لديه من الأبقار، ثم يشتري بثمنها أقمشة ومصنوعات أخرى، ويعود بها إلى العراق.

وكان الرجل مسلمًا حقًّا، قوَّامًا، صوَّامًا، منفقًا على الفقراء، قائمًا بواجباته نحو ربه ونحو الناس، ورعًا تقيًّا نقيًّا، ماله ليس له وحده، بل للمحتاجين من أقربائه، وأهل بيته، ولكل طالب محتاج.

وفي إحدى سفراته بتجارته، وكان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، هطل ثلج كثير، فسد الطريق، وقتل الأعشاب فماتت أبقاره عدا أربعة منها، فصرف رجاله، وأخذ يتنقل بها من مكان إلى آخر، وكان في نيته أن يصل إلى حلب الشهباء؛ ليؤدي ما عليه من ديون هناك حسب طاقته، ويطلب تأجيل ما بقي عليه منها إلى العام القادم؛ لأن تجارته في هذا العام لم تربح، وإن مع العسر يسرًا.

وفي مساء ذات يوم وصل إلى قرية صغيرة في طريقه من الموصل الحدباء إلى حلب الشهباء، فطرق باب أحد بيوتها، فلما خرج إليه رب الدار، أخبره بأنه ضيف الله، وأنه يريد أن يبيت ليلته في داره، فإذا جاء الصباح سافر إلى قرية أخرى.

ولم تكن حينذاك فنادق يأوي إليها المسافرون، ولم تكن يومئذ مطاعم يتناول الغرباء فيها طعامهم.. لقد كان الغريب، أو المسافر يطرق أي دار من دور المكان الذي يصل إليه، ثم يحل ضيفًا بين ظهراني أهله، ينام كما ينامون، ويتناول من طعامهم دون أجر أو مقابل..

ورحب صاحب الدار بضيفه، وأدخل أبقاره إلى صحن الدار، وقدم الطعام للضيف والعلف للأبقار.

كان صاحب البيت معدمًا، وكان قد أصابه ما أصاب الناس من هطول الثلج بكثرة ولمدة طويلة، فماتت مواشيه وتضرر زرعه.

وكان متزوجًا وله ولد واحد في العقد الثاني من عمره.

وكان في داره غرفتان: غرفة يأوي إليها هو وزوجه، وغرفة يأوي إليها ولده.

واجتمعت العائلة حول الضيف الجديد، وابتدأ السمر شهيًّا طليًّا، عرف المضيف من خلاله أن ضيفه يحمل مبلغًا من المال..

وفي الهزيع الثاني من الليل، أوى المضيف مع زوجته إلى غرفتهما، وأوى الضيف إلى غرفة ولد المضيف، فنام الولد على فراشه في الزاوية اليمنى من الغرفة، وأوى الضيف إلى فراشه في الزاوية اليسرى من الغرفة.

وبعد أن سأل المضيف ضيفه عما إذا كان يحتاج إلى شيء ما، واطمأن إلى راحته، وتأكد حتى من وجود الماء لديه، غادر إلى غرفته لينام هو أيضًا.

وفي غرفته همست له زوجته: يا فلان! إلى متى نبقى في عوز شديد؟ هذا الضيف غني، ونحن بأشد الحاجة إلى ماله وأبقاره.

إننا مُقبلون على مجاعة، لا يستطيع الأغنياء أن يتغلبوا عليها إلا بمشقة بالغة، وسنموت نحن بدون ريب، إننا الآن نأكل يومًا ونجوع أيامًا، فكيف بنا إذا حلت بالقرية المجاعة المرتقبة ولا مال عندنا ولا طعام؟

إن الفرصة سانحة اليوم، ولن تعود مرة أخرى في يوم من الأيام! هلُمَّ إلى الضيف فاسلبه ماله، وخذ أبقاره، حتى تُبقي على حياتنا وحياة ولدنا الوحيد.

وقال لها الرجل: كيف وهو ضيفنا؟ كيف أسلبه ماله وأبقاره؟ كيف يسمح لنا بسلبه؟!

قالت زوجته: اقتله، ثم نرميه في حفرة قريبة في بطن هذا الوادي ومن يعرف بخبره؟ من؟!!

وتردد الرجل، وألحت المرأة، وكان الشيطان ثالثهما، فزين للرجل قول امرأته، وألحّ هو أيضًا على الإقدام على قتل الضيف.. ولكي تقطع المرأة على زوجها داء تردده، ولكي يقطع عليه الشيطان، قالت المرأة لزوجها: إن ما تفعله ضروري لإنقاذنا من الموت الأكيد، والضرورات تبيح المحرمات!..

واقتنع الرجل أخيرًا، وعزم على قتل الضيف وسلب ما لديه من مال ومتاع.

كان الوقت في الثلث الأخير من الليل، وكان كل شيء هادئًا ساكنًا، وكانت الأنوار مطفأة، ولم تكن أنوار المنزل في حينه غير سراج يوقد بالزيت.

وقصد الرجل خنجره، وشحذه، ثم يمم شطر غرفة الضيف وابنه ومن ورائه زوجه تشجعه.

ومشى رويدًا رويدًا، على رؤوس أصابع رجليه، واتجه شطر الزاوية اليسرى من الغرفة حيث يرقد الضيف، وتحسس جسمه حتى تلمس رقبته، ثم ذبحه، كما يذبح الشاة.

وجاء إلى الرجل زوجه، وتعاونا على سحب الجثة الهامدة إلى خارج الغرفة حيث اكتشفا هناك أنهما ذبحا ابنهما الوحيد.

شهق الرجل شهقة عظيمة، وشهقت المرأة، فسقطا مغشيًّا عليهما، وعلى صوت الجلبة استيقظ الضيف، واستيقظ الجيران، ليجدا ابن الرجل قتيلًا، وليجدوا أمه وأباه مغشيًّا عليهما راقدين إلى جانب الجثة الهامدة على الأرض.

وسارع الضيف وسارع الجيران إلى الرجل وامرأته بالماء البارد يرشونه على وجهيهما، فلما أفاقا أخذا يبكيان بكاءً مرًّا، وطلبا إلى الجيران إبلاغ الحادث إلى الشرطة، فجاءت على عجل وألقت القبض على الجانيين.

ما الذي حدث في غرفة نوم الضيف وابن المضيف؟

لقد قام الابن إلى فراش الضيف بعد أن غادر أباه الغرفة، وأخذ الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث، وكان الحديث ذا شجون، فطال أمده، حتى نام الولد على فراش الضيف بعد أن غلبه النعاس.

ولم يشأ الضيف أن يوقظ ابن مضيفه، فترك فراشه له بعد أن أحكم عليه الغطاء، ثم أوى إلى فراش ابن المضيف.

وحين قدم المضيف إلى غرفة الضيف وابنه، كان متأكدًا من موضع فراش كل واحد منهما، فذبح ابنه وهو يريد الضيف، فكان كالخارجي الذي أراد اغتيال عمرو بن العاص في عماية الفجر، فاغتال بدله خارجة بن حذافة، فلما علم بالخبر، هتف من صميم قلبه: «أردت عمرًا وأراد الله خارجة».

ودفن الجيران الولد القتيل، واستقر والداه في السجن[1].

(١) «ساعة وساعة» (٢١٨: ٢٢١).

فرج الله

القصة الأولى -

روي أن حاتم الأصم قال لأولاده: إني أريد الحج فبكوا وقالوا: إلى من تكلنا؟[١] وكان له بنت فقالت: دعوه يذهب فليس برازق فخرج فباتوا جياعًا فجعلوا يوبخون تلك البنت، فقالت: اللهم لا تخجلني بينهم، فمر بهم أمير البلد فقال لبعض أصحابه: اطلب لي ماء فناوله أهل حاتم كوزًا جديدًا فيه ماء بارد فشرب فقال: دار من هذه؟ فقالوا: دار حاتم الأصم، فرمى فيها منطقة من ذهب، وقال: من أحبني وافقني فرمى العسكر ما معهم من المال في هذا الإناء فجعلت البنت تبكي فقالت أمها: ما يبكيك وقد وسع الله علينا؟! فقالت: لأن مخلوقًا نظر إلينا فاغتنينا، فكيف لو نظر الخالق إلينا؟.

القصة الثانية -

قال ابن عباد الصيرفي البغدادي: بينما أنا نائم إذ قيل لي في المنام: يا عباد قم فأغث الملهوف، فقلت: وأين هو؟ فقيل لي: اركب دابتك فهو حيثما وقفت. قال: فانتبهت من نومي وركبت دابتي وجعلت أتخلل أزقة بغداد حتى انتهيت إلى مسجد فوقفت الدابة ونزلت عنها ودخلت المسجد فإذا برجل مستقبل القبلة فسلمت عليه وقلت: ما قضيتك؟ قال: إني رجل ذو عيال ولم يكن عندهم الليلة شيء فجلست هاهنا، وطلبت من الله الفرج، قال: فأعطيته مائة دينار وقلت له: أنا ابن عباد الصيرفي فإذا احتجت إلى شيء فائتني فقال: سبحان الله، أترك الذي أقامك من فراشك وأتى بك إليَّ في ظلمة الليل وأذهب إلى غيره. فودعته وانصرفت[٢].

---

(١) تكلنا: تتركنا.

(٢) «مائة قصة وقصة».

الكلب والرغيف

عن ابن شداد قال:

رأيت رجلًا له كلب يقربه ويغطيه بديباج كان عليه، فسألته عن السبب، فقال: كان لي رفيق يعاشرني فخرجنا في سفر، وكان في وسطي همیان فيه جملة دنانير، ومعي متاع كثير، فنزلنا في موضع، فعمد إليَّ فأوثقني ورمى بي في وادٍ، وأخذ ما كان معي ومضى، وقعد هذا الكلب معي، ثم تركني ومضى، فما كان بأسرع من أن وافاني ومعه رغيف، فطرحه بين يدي، فأكلته ولم أزل أحبو إلى موضع فيه ماء، فشربت منه، ولم يزل الكلب معي باقي ليلتي.

ثم نمت ففقدته، فما كان بأسرع أن وافاني ومعه رغيف فأكلته، فلما كان في اليوم الثالث غاب عني، فقلت: يمضي ويجيئني بالرغيف، فجاء ومعه الرغيف، فرمى به، فلم أستتم أكله إلا وابني يبكي فوق رأسي، وقال: ما تصنع هاهنا، وما قصتك؟ ونزل وحلَّ كتافي، وأخرجني.

فقلت له: من أين علمت بمكاني؟ ومن دلك عليَّ؟ فقال: كان الكلب يأتينا في كل يوم فنطرح له الرغيف على اسمه، فلا يأكله وقد كان معك، فأنكرنا رجوعه ولست معه، وكان يحمل الرغيف بفمه ولا يذوقه، ويغدو فأنكرنا أمره، فاتبعته حتى وقفت عليك، فهذا خبري وخبر الكلب[1].

(١) «الأذكياء» ص [٢٩٨].

ذكاء الطير أم أجلُ أفعى؟!!

بنى أحد الطيور عشًّا له في أعالي جامع أيا صوفيا في استانبول، وبينما كان يَهُمُّ بالدخول إلى عشه لإطعام صغاره، شاهد حية كبيرة تتسلل إلى العش، فسارع بالمغادرة فورًا، وعاد بعد دقيقة ليحوم حول العش. ولما همت الأفعى بالتهامه فاغرة فاها، إذا بها تهوي على الأرض!

وأسرع الذين كانوا على بينة من الأمر يراقبون هذا الحدث عن كثب ليعرفوا جلية الأمر، فوجدوا أن العصفور كان قد حمل نحلة في منقاره ورماها في فم الأفعى، وبلسعة واحدة من النحلة قضت على الأفعى[1].!

obeikandl.com

(١) «غرائب من العالم» (٤/ ٧٤).

مع لقمان وابنه

وعن سعيد بن المسيب قال: قال لقمان لابنه: يا بني: لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته، إلا جعلت في الضمير أن ذلك خير لك. قال: أما هذه فلا أقدر أن أعطيكها دون أن أعلم ما قلت أنه كما قلت. قال: يا بني فإن الله قد بعث نبيًّا هلم حتى نأتيه، فعنده بيان ما قلت لك. قال: اذهب بنا إليه، فخرج على حمار وابنه على حمار، وتزودا ما يصلحهما، ثم سارا أيامًا وليالي، حتى تلقتهما مفازة[1]، فأخذا أهبتها ودخلاها، فسارا ما شاء الله أن يسيرا، حتى تعالى النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد، فاستبطا حماريهما، فنزلا يمشيان، فبينما هما كذلك إذ نظر لقمان أمامه، فإذا هو بسواد ودخان، فقال في نفسه: السواد شجر والدخان عمران وناس. فبينما هما كذلك يشهدان، إذ وطئ ابن لقمان على عظم على الطريق، فدخل في باطن قدميه حتى ظهر من أعلاها، فخر مغشيًّا عليه، فحانت من لقمان التفاتة، فإذا هو بابنه صريع، فوثب إليه فضمه إلى صدره، واستخرج العظم بأسنانه، وشق عمامة كانت عليه فعصب رجله، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه، فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام فانتبه لها.

فنظر إلى أبيه يبكي فقال: يا أبت، أنت تبكي وأنت تقول: هذا خير لي، فكيف ذلك وأنت تبكي؟! وقد نفذ الطعام والشراب وبقيت أنا وأنت في هذا المكان. قال: أما بكائي يا بني، فوددت أني افتديتك بجميع حظي من الدنيا، ولكني والد ومني رقة الوالد. وأما قولك: كيف يكون هذا خيرًا لي؟ فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك، فبينما هو يحاوره، إذ نظر لقمان أمامه، فلم ير الدخان والسواد، فقال في نفسه: لم أر شيئًا، ثم قال: قد رأيت، ولكن لعله أن يكون قد أحدث ربي بما رأيت شيئًا، فبينما هو يتفكر في ذلك، إذ نظر فإذا هو بشخص قد أقبل على فرس

(١) المفازة: هي الصحراء سميت بذلك تفاؤلاً.

أبلق، عليه ثياب بيض، يمسح الهواء مسحًا، فلم يزل يرمقه بعينه حتى كان منه قريبًا، فتوارى عنه ثم صاح به فقال: أنت لقمان؟ قال: نعم. قال: ما قال لك ابنك هذا السفيه؟ قال: يا عبد الله من أنت؟ ما أسمع كلامك ولا أرى وجهك، قال: أنا جبريل، لا يراني إلا ملك مقرَّب، أو نبي مرسل، لولا ذلك لرأيتني، فما قال لك ابنك هذا السفيه؟ قال: أما علمت ذلك؟ فقال جبريل: ما لي بشيء من أمركما علم، إلا أن حفظتكما[1] أتوني وقد أمرني ربي تعالى بخسف هذه المدينة، فدعوت ربي أن يحبسكما عني بما شاء فحبسكما عني بما ابتلى به ابنك، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسف به، ثم مسح جبريل عليه السلام بيده على قدم الغلام، فاستوى قائمًا، ومسح يده على الذي كان فيه الطعام فامتلأ طعامًا، ومسح على الذي كان فيه ماء فامتلأ ماء، ثم حملهما وحمارهما فرحل بهما كما يرحل الطير، فإذا هما في الدار التي خرجا منها بعد أيام وليالٍ[2].

(١) يقصد الحفظة من الملائكة.
(٢) «مختصر منهاج القاصدين» ص (٣٨٩، ٣٩٠).

ثمامة بن أثال

روى البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيلًا قِبَلَ نجدٍ، فجاءت برجل من بني حنيفةَ يقال له ثُمامة بن أُثال، فرَبطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «ماذا عندك يا ثمامة؟»، فقال: عندي خير. يا محمدُ إن تَقتلني تَقتلْ ذا دم، وإن تُنْعِم تنعم على شاكر، وإن كنت تريدُ المالَ فسلْ منه ما شئتَ. فتُرِكَ حتى كان الغَد، ثم قال لهُ: «ما عندك يا ثمامة؟»، فقال: عندي ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: ما عندك يا ثمامة فقال: عندي ما قلت لك. فقال: «أطلقوا ثمامة». فانطلَقَ إلى نخل قريب من المسجدِ فاغتسلَ، ثم دخلَ المسجدَ فقال: أشهد أن لا إلهَ إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله. يا محمد، والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك، فقد أصبحَ وجهكُ اليوم أحبَّ الوجوهِ إليَّ، وما كان من دِين أبغضَ إليَّ من دِينك، فقد أصبح دينك أحبَّ الدِّين إليَّ. والله ما كان من بلد أبغضَ إليَّ من بلدك، فأصبح بلدكَ أحبَّ البلاد إليَّ. وإن خَيلكَ أخذتني، وأنا أُرِيد العمرة، فماذا ترى؟ فبشَّره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمَرَه أن يَعتمر، فلما قَدِم مكة قال له قائل: صَبأت؟ قال: لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامةِ حَبةُ حِنطة حتى يأذَن فيها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

فانظر إلى خروج ثمامة إلى أداء العمرة[2]، فقدر الله عَزَّوَجَلَّ أن يقع في أيدي المسلمين ويقبض عليه أسيرًا عند أبغض الناس إليه فلما ربط في سارية من سواري المسجد ورأى المسلمين وهم يصلون واستمع إلى كلام الله ألقى الله في قلبه الإسلام. فدخل في دين الله. فكان وقوعه في الأسر من أجلِّ نعم الله عليه لأنه كان سببًا في إسلامه. فسبحان مدبر الأمور!

(١) رواه البخاري ح [٤٣٧٢]، و«فتح الباري» (٧/ ٦٨٨)، «زاد المعاد» (٢/ ١١٩).
(٢) في «السيرة الحلبية»: أن ثمامة خرج متنكرًا لاغتيال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمر من مسيلمة الكذاب.

(إسلام شيطان)

جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحِجْر بعد موقعة بدر بيسير وكان عمير من شياطين قريش ممن كان يؤذي النبي ﷺ وأصحابه وهم بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فذكر أصحاب القَلِيب ومصابهم، فقال صفوان: والله إن في العيش بعدهم خير.

قال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا دَيْن عليَّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضَّيعةَ بعدي لركبتُ إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قِبَلَهُمْ عِلَّةً، ابني أسير في أيديهم.

فاغتنمها صفوان وقال: عليَّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي، أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم.

فقال له عمير: فاكتم عني شأني وشأنك. قال: أفعل.

ثم أمر عمير بسيفه فشُحِذَ له وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة، فبينما هو على باب المسجد يُنيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب - وهو في نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمهم الله به يوم بدر - فقال عمر: هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا لشر. ثم دخل على النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحًا سيفه، قال: «فأدخله علي»، فأقبل إلى عمير فلَبَّبَهُ بحَمَالة سيفه، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به، فلما رآه رسول الله ﷺ - وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه - قال: «أرسله يا عمر، ادن يا عمير»، فدنا وقال: أنْعِمُوا صباحًا، فقال النبي ﷺ: «قد

أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة». ثم قال: «ما جاء بك يا عمير؟» قال: جِئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه.

قال: «فما بال السيف في عنقك؟» قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئًا؟

قال: «اصدقني، ما الذي جئت له؟» قال: ما جِئت إلا لذلك.

قال: «بل قعدتَ أنت وصفوان بن أمية في الحِجْر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دَين عليَّ وعيال عندي لخرجتُ حتى أقتل محمدًا، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله حائلٌ بينك وبين ذلك».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم تشهَّد شهادة الحق. فقال رسول الله ﷺ: «فَقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرءان، وأطلقوا له أسيره».

وأما صفوان فكان يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر.

وكان يسأل الركبان عن عمير، حتى أخبره راكب عن إسلامه، فحلف صفوان ألا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدًا.

ورجع عمير إلى مكة وأقام بها يدعو إلى الإسلام، فأسلم على يديه ناس كثير[1][2].

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٦١-٦٦٣).

(٢) انظر لتقدير الله يقع ابنه في الأسر ويجلس وهو مع صفوان ليتفقا على قتل النبي ﷺ ويأتي لتنفيذ ذلك فأراد الله به خيرًا، ويرى معجزةً ظاهرة للنبي كانت سببًا في إسلامه، ودخوله في دين الله.

ثمرة الأمانة

من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه. يروي مشايخنا أن طالبًا من طلاب الأزهر قدم من بلاد الصعيد، فجلس في حلقة شيخه، وتأخرت نفقته من الصعيد، ففارق حلقة الشيخ عساه أن يحصل على كسيرات من الخبز ولقيمات يقتات بها ويتقوى عليها، فبينما هو يسير إذ دخل في شارع ضيق، فوجد بابًا مفتوحًا، ووجد خزانة من طعام، فمد يده إلى الطعام، وكان من المحشي، ثم بعد أن تناول قطعة منه ووضعها في فمه تذكر أنه جاء ليطلب العلم، والعلم نور، والأكل من هذا الطعام دون أن يستحل صاحبه يظلم القلب، ولا يمكن أن يجتمع النور والظلمة، وسيطرد أحدهما الآخر، فترك هذا الطعام، وعاد لحلقة الشيخ وبه من الجوع ما لا يعلمه إلا الله، وبعد أن انتهى الدرس إذا بامرأة تأتي، وتكلم الشيخ كلامًا لم يفهمه الحاضرون، ثم قال الشيخ لطالب العلم هذا: يا عبد الله، ألك رغبة في الزواج؟ فقال: أتهزأ بي، والله من ثلاثة أيام ما دخل جوفي طعام، فكيف أتزوج؟ قال الشيخ: إن هذه المرأة تذكر أن زوجها توفي وترك بنتًا واحدة، وكان ذا ثروة ومال كثير، وتريد أن يتزوج ابنتها رجل صالح يعيش معها ومع ابنتها، وينمي المال ويرعاه، فقال: إن كان كذلك فلا بأس، فخرج الشيخ والتلميذ والمرأة والحاضرون يسيرون حتى دخلوا البيت الذي دخله هذا الشاب من قبل، فلما وضع الطعام بكى هذا الشاب، فقال له الشيخ: لم تبكي؟ هل أكرهناك على الزواج؟ قال: لا، ولكني قبل سويعات دخلت هذا البيت لآكل من هذا الطعام الذي وضع بين أيدينا، فتذكرت أنه حرام فتركته لله فأعاده الله إليَّ ومعه غيره عن طريق الحلال ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وضعتها أنثى

أخرجوها من غرفة العمليات.. أعصابها مشدودة.. وقدمت له الممرضة المولود الجديد.. نسي نفسه وزوجته والعالم بأسره.. ركض إلى الممرضة مسرعًا:

- ماذا رزقت؟

- أنثى.

تيارات قاسية من الحزن تخرج من جوفه تمر بحلقه وتخترق رأسه..

- إنها جميلة جدًّا.. وقالت أمها: إنها وجد (أي سميتها وجد)..

- نظر إليها.. ثغر «وجد» الطري يتحرك، وكأنها تريد أن تبتسم لوالدها..

لكن عيونه كانت تتحدث: لماذا أتيت؟ لم أريدك أنت! كم انتظرت هذا المولود..

يا الله! أيسبغ علينا سبحانه نعمه ثم نركلها بدلًا من الشكر والحمد!!

كان خيرًا لنا أن نركل ما رسب في أذهاننا من عادات مقيتة وتقاليد سقيمة تدل على سخف رؤانا وتفاهة تفكيرنا وقلة حيلتنا في التعامل مع مطالب الحياة..

دخل إلى زوجته بعد أن نقلوها إلى غرفتها.. تحدثت إليه:

- ألم ترها؟! إنها جميلة جدًّا. انظر إلى هذه الشعرات الشقراء، ما أروعها..

- قال باقتضاب: حمدًا لله على سلامتك.

تراجعت الزوجة واغرورقت عيناها بالدموع.. ضمت ابنتها.. نظرت إليه نظرة فاحصة..

كان يعميها الحزن الذي تلبسه.. أشاحت بوجهها عنه وألقمت (وجد) ثديها.. تدفقت في لبنها جرعات زائدة من الحب والحنان علها تعوضها ما ستفقده من حنان الأب!

مرت الأيام.. (وجد) تكبر وتحلو.. وأبوها غير مكترث بها.. غافل عن لحظات السعادة التي تغمر الوالدين عندما يراقبان حركات وسكنات ولدهما..

اليوم لثغة.. غدًا تحبو.. وبعدها تمشي.. وهكذا..

عيناها الزرقاوان تلمعان وتسحران كل من يراهما بصفائهما وبريقهما.. صار عمرها ثلاث سنوات.. وخصل الشعر الأشقر وصلت إلى كتفها.. ثغرها شديد الحمرة، بدأ يتحرك بكلمات بريئة تدغدغ القلب..

ذات يوم كان أبوها يجلس على الأريكة ذاهلًا عما حوله..

فأمسكت الكرة ورمتها إليه.. ارتطمت الكرة برجله لم ينتبه!

ركضت نحو الكرة ورمتها إليه مرة أخرى.. أيضًا لم ينتبه..

صعدت على الأريكة.. قبلت يده ووضعتها على وجهها.. لكنه لم يتحرك.. نظرت إليه فإذا هو نائم.. وضعت رأسها على حضنه وبدأت تغني بكلمات قليلة حفظتها من أمها عندما كانت تغني لها لتنام.. وهي تمرر يدها على يده وكأنه طفلها وهي تنومه.. وهكذا حتى نامت هي الأخرى..

دخلت الأم فوجدت الاثنين نائمين معًا.. تفاجأت! وامتلأت عيناها بالدموع فرحًا.. عندما استيقظ الأب قَبَّل (وجد) على رأسها قبلة سريعة ومضى إلى عمله.

ولأول مرة منذ أن ولدت أخذ يفكر ماذا سيجلب لها وهو عائد إلى المنزل.. لقد تخيل أنه يعطيها السكاكر.. وأنها فرحة..

امتلأ قلبه بالنشوة عندما تحركت في مخيلته هذه الصورة.. أوقف سيارته.. نزل إلى البائع وجلب لها كيسًا مليئًا بالسكاكر..

عاد إلى البيت في المساء.. فتحت زوجته الباب وهي في ثياب الخروج!

- ماذا دهاك؟! لماذا أنت خارجة في مثل هذا الوقت؟!

- أبي مريض، نقلوه إلى المستشفى وأريد أن أراه..

- إذًا أوصلك..

- لا، ابق أنت عند (وجد) وسيأتي أخي ليأخذني الآن..

- حسنًا..

ذهبت أم (وجد) وبقي هو مع وجد وحدهما في المنزل..

بدل ملابسه ودخل إلى غرفة الجلوس.. كانت وجد تجلس على الأرض وتداعب دميتها.. رسم ثغرها ابتسامة مميزة كأنها تستدرُّ عطفه..

- أتعرفين ماذا جلبت لك يا وجد؟!

- ردت بابتسامة..

- خذي هذه السكاكر.. إنها ملونة ولذيذة..

احتضنت وجد السكاكر وكأنها أمسكت كنزًا ثمينًا.. كادت تطير بما تحمل في يديها.. أشارت إليه أن يفتح لها واحدة.. ففعل وألقمها إياها بيده.. مصت إصبعه وهو يضعها فيها.. لأول مرة يضع لها شيئًا في فمها!! ما هذا الشعور الرائع الذي حرم نفسه منه كل هذه الأيام؟!

جلس على أريكته.. و(وجد) تلعب مع دميتها.. بدأ يحس بالتعب.. مد رجليه على الأريكة وحدث نفسه: اليوم كان شاقًّا جدًّا.. وأخذ ينظر إلى (وجد) وكأنه يراها لأول مرة.. التعب يزداد.. صورة وجد تهتز في عينيه من شدة التعب.. اصفر وجهه! إنه يشعر بالاختناق.. حاول فتح النافذة إلا أن حركته مشلولة.. فك زر القميص قرب رقبته.. وجهه بدا شاحبًا جدًّا.. العرق بدأ يتصبب بغزارة.. قلبه ينبض بسرعة.. أطرافه باردة.. حاول الوقوف لطلب المساعدة، وقع على الأرض قبل أن تصل يده إلى الهاتف.. لم يعد يرى شيئًا.. حتى قدرته على الكلام أصبحت مشلولة.. الظلام يملأ رأسه! عرف أنه الموت.. صار يحاول أن يذكر الله بلسانه عله يغفر له.. لكن لسانه لم يستجب.. إنه يشعر بنفسِ قريه.. آه إنها (وجد).. إنها قريه! زحفت (وجد) نحوه.. يداها ترجفان وعيناها تبكيان.. المسكينة صغيرة لم تعرف ماذا ستفعل؟!!

أخرجت السكرة من فمها فهي لا تملك غيرها!! وضعتها في فم أبيها.. ضمت رأسها بكلتا يديها وهي تبكي وتلثمه من كل مكان في وجهه.. بدأت أمارات الارتياح تظهر على وجهه.. عادت زوجته بعد زمن قليل وأحضرت الطبيب من فورها.. أجرى له الطبيب الفحوصات وقال: لقد أصبت بانخفاض حاد في السكر وكدت تفقد حياتك ولكن هذه السكرة هي التي أنقذتك!!

أخذ يبكي كولد صغير..

استغرب الطبيب وانسحب لا يدري لم كل هذا البكاء؟!

حملت الأم صغيرتها ومشت باتجاه غرفة نومها..

فناداها: (أم وجد)! لأول مرة يناديها (أم وجد)!!

استدارت نحوه مستفهمة ماذا يريد منها؟

- أريد وجد..

- إنها نائمة..

- أريد أن أقبلها..

- إنها نائمة، قد توقظها..

- تعالي إلي..

بكت أم وجد.. ضمها زوجها وهي حاملة ابنتها.. وقال لها: سامحيني أرجوك.. سامحوني.. سامحني يا الله! اغفر لي.. حمدًا لك يا الله.. حمدًا لك.. وضعت الأم إصبعها على فمها وأشارت إليه: اخفض صوتك.. إنها نائمة.. ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

الهروب إلى الموت

هل يفر الإنسان من قدره؟! وهل هناك ما يمنع الموت؟!

في هذه القصة تكون الإجابة:

تركها زوجها وحيدة بعد أن وافاه الأجل، وبقيت تصارع الحياة.. تشقى لسعادة ابنها الوحيد، وتكد من أجله، وقد رفضت الزواج مرارًا، وكانت لابنها الأب والأم، والصديق، حتى أنها تنتظره عند الباب عند عودته من المدرسة، وقد نشأ نشأة حسنة، فلقد علمته وربته على الفضيلة.. فكان من أوائل الطلبة.

وحين أتم دراسته الثانوية أراد أن يكمل تعليمه في إحدى جامعات الدول العربية ولكن الأم رفضت الفكرة؛ لأنها لا تطيق الابتعاد عن ولدها الوحيد، ولكن شغف الابن بالعلم جعله يقدم أوراقه، وأتم إجراءات السفر دون علمها حتى كانت ليلة السفر حيث أخبرها بأنه قد حجز تذكرة إلى بغداد وأن موعد السفر غدًا.

حزنت الأم.. ولكنها أخفت حزنها، وفكرت في طريقة تبقي فيها ولدها بجانبها.. وفي منتصف الليل أخفت الأم جواز سفره والتذكرة، وفي الصباح ودع الابن والدته وانصرف، وفي المطار منعه رجال الشرطة من المغادرة، فتذكر أن أمه هي التي أخفت جواز سفره.. فرجع غاضبًا، ودار بينه وبين أمه جدال وشجار طويل، ولما لم يجد فائدة من الحديث دخل غرفة نومه ونام.. كانت الأم تستمع بسرور إلى المذياع وهي تجهز طعام الغداء، لعلمها أن ولدها لن يسافر وقد لفت انتباهها صوت المذياع وهو يقول:

- لقد سقطت الطائرة المتجهة إلى بغداد وتوفي جميع من فيها.. فرحت الأم فرحًا شديدًا لنجاة ابنها الوحيد من الموت، وذهبت لتخبره بالقصة، فوجدته.. قد فارق الحياة على فراشه[1]!!

(١) «قصص واقعية» ص [١٢٩].

الله هو الحكم العدل

كان رجلًا معدمًا ولكنه كان سعيدًا.

وكانت له عائلة من زوجة وخمسة أولاد وأختين ووالدة طاعنة في السن، له حانوت يبيع فيه الخضروات.. البقطين، والباذنجان، والسلق، والفجل، والطماطم.. إلخ.

حانوته هذا في طريق فرعية، يبيع فيه سلعته على جيرانه من الفقراء فلم يكن له من المال ما يؤجر به حانوتًا في موقع ممتاز أو يشتري به سلعة ممتازة.

أما داره الخربة فتسمى من باب المجاز دارًا، وهي في حقيقتها غرفة واحدة حولها ركام من الأنقاض، وفي هذه الغرفة ينام أفراد العائلة يطبخون ويستحمون.

وإذا ما عاد الرجل إلى داره بعد غروب الشمس، ومعه الخضرة، واللحم، والخبز، تستقبله العائلة كلها بالفرح والتصفيق، والأغاني، والأهازيج، ويتناولون منه ما بيديه من طعام، ويهرعون إلى القِدر لإعداد العشاء.

ولم يكن في كل يوم يحضر اللحم، فإذا كان مبيعه اليومي رابحًا استطاع أن يشتري لحمًا، وإلا فعشاء عائلته من بقايا ما كسد من خضرة حانوته.

وكانت تلك العائلة تسكن إلى جوار حاكم في المحكمة العليا، وكان ذلك الحاكم يعطف على تلك العائلة ويزورها بين حين وآخر.

وهذا الحاكم كثيرًا ما حدَّثني عن عائلة جاره، قائلًا: لم أرَ في حياتي عائلة سعيدة مثل هذه العائلة، ولم أرَ فرحًا غامرًا كالفرح الذي يشيع في العائلة عندما يعود ربُّها من عمله مساء، وكنت كثيرًا ما أحب أن أعيش وقتًا سعيدًا بينها حين يصل جاري إلى داره فتستقبله العائلة كلها بالتهليل والتكبير، ثم يبدأ عملها الدائب في إعداد العَشاء، فإذا نضج الطعام بدأوا يتناولونه من إناء كبير فإذا انتهوا من عشائهم، حمدوا الله وشكروه،

وأكثروا من حمده وشكره، ثم أووا إلى فراشهم الخلق البسيط فرحين قانعين، لا يتمنون على الله غير الستر والعافية، وألَّا يحتاجوا إلى إنسان.

وفي يوم من أيام الخريف، كانت العائلة تنتظر عائلها مساءً على باب الدار، فإذا بهم يرون بعض الشرطة يحملون نعشًا، فلما تبينت العائلة الأمر وجدت معيلها الوحيد هو المحمول في النعش.

كان قد أغلق حانوته، وقصد القصَّاب (الجزار) المجاور فاشترى لحمًا، وقصد الخباز القريب فاشترى خبزًا، وحمل بقايا خضرته من دكانه، فلما أراد عبور الشارع دهسته سيارة طائشة، فمات الرجل فورًا، وتبعثر ما كان معه من زاد.

وتجمَّع الجيران حول النعش، وجمعوا من سراتهم بعض المال، وأنفقوا على تجهيز الجثة الهامدة ما جمعوه، وقدموا ما تبقى من مال زهيد إلى العائلة، وفي صباح اليوم التالي واروا الفقيد إلى قبره.

وكان أكبر أولاده في سن الخامسة عشرة، يدرس في الصف الثاني في المدرسة المتوسطة الشرقية؛ ليُعد نفسه ليكون موظفًا صغيرًا بعد تخرجه من الإعدادية فيعاون أهله.

وبعد يومين من موت والده، نفد آخر ما جمعه الجيران من مال للعائلة، وفي اليوم الثالث قصد حانوت والده.

وبدأ العمل فيه كل يوم بعد غروب الشمس كما كان يفعل والده.

ولكن الابتسامات غاضت إلى غير رجعة.. والفرح مات إلى الأبد..

وكان الطعام الذي تتناوله العائلة ممزوجًا بالدموع.. لقد دفنت العائلة سعادتها مع فقيدها الحبيب..

ومرت الأيام ثقيلة، بطيئة، ودار الزمن دورته، فانقضت ثلاث سنوات ودُعي الولد الكبير إلى الخدمة في الجندية بعد أن استكمل الثامنة عشرة من عمره.

واجتمعت العائلة تتداول الرأي هل يترك الابن الثاني مدرسته وقد أصبح في الصف الرابع الإعدادي ولم تبق له غير سنة؛ ليتخرج من الإعدادية؛ ليتولى إدارة حانوت أخيه؟ وإذا لم يفعل فمن يعيل أهله.

واستقر رأي العائلة على بيع الدار، ولو أن الخروج منها كخروج الشاة من جلدها، لا يُسمَّى إلا موتًا أو سلخًا..!

والتحق الابن الكبير بالجندية في بلد مجاور يتدرب على استعمال السلاح، وكان معلم التدريب العسكري يلاحظه فيجد فيه ذهولًا وانصرافًا عن التدريب، فكان ينصحه تارة، ويعاقبه بالتعليم الإضافي تارة أخرى.. دون جدوى.

لقد كان حاضرًا كالغائب، وكان جسمه فقط مع إخوانه الجنود في التدريب، ولكن عقله كان بعيدًا.. بعيدًا.. هناك عند عائلته.

واستدعاه معلمه يومًا، وسأله عن مشكلته، ففتح له قلبه وأخبره بأمره، فبادله المعلم الإنسان حزنًا بحزن، وأسى بأسى، وكفَّ عن ملاحقته في أمر إتقان التدريب.

وعرض المعلم مشكلته على آمر الفصيلة، فأمر بتعيينه في مطبخ الجنود يغسل القدور، ويقطع اللحم، ويوقد النار ويوزع الطعام، أما أمه.. فكانت هي أيضًا حاضرة كالغائبة.

استقرضت بعض المال من أحد سماسرة بيع الدور؛ لتطعم العائلة به، ورهنت سند الدار عند السمسار وعرضت الدار للبيع.

واستمر عرض الدار أيامًا على الراغبين بشرائه، وأخيرًا وبعد مرور عشرين يومًا، باعت الدار بأربعمائة دينار، ثم قضت تسعة أيام في معاملات حكومية رتيبة لنقل ملكيتها إلى المالك الجديد.

وبقي يوم واحد على موعد إعطاء البدل النقدي عن ولدها، وكان عليها أن تسافر إلى المدينة التي استقر فيها ولدها في الجندية مساء اليوم التاسع والعشرين؛ لتسلم البدل النقدي صباح اليوم الثلاثين، فإذا تأخرت عن ذلك الموعد ساعة فلن يُقبل من ابنها البدل النقدي.

وقصدت الأم مأوى السيارات التي تنقل الركاب من بلدتها إلى بلدة ولدها، فوجدت السيارات ولم تجد الركاب.

كان الوقت قبيل الغروب من أيام الصيف، وانتظرت ساعة في مأوى السيارات دون أن يحضر مسافر واحد.

وانتظرت على أحر من الجمر، وقد غابت الشمس، والمسافة بين المدينتين حوالي أربعين ومائتي كيلو مترًا تُقطع بالسيارات في ساعتين ونصف فإذا لم تسافر ليلًا، ضاع عليها الوقت ولن تصل إلى مدينة ولدها إلا في صباح اليوم التالي.

وعرضت على سائق إحدى السيارات أن تستأجر - وحدها - سيارته على أن يسافر بها فورًا.

وقبض السائق أجرة سيارته كاملة من المرأة وتحركت السيارة في طرق جبلية وفي الطريق تحدَّث السائق إلى المرأة، فعلم منها قصة بيع الدار، وقصة دفع البدل النقدي عن ولدها.

وتدخل الشيطان بينهما، فلعب دوره في تخريب ضمير السائق، فعزم على تنفيذ خطة لاغتصاب المال من المرأة المسكينة.

وفي إحدى منعطفات الطريق، حيث يستقر إلى جانب الطريق الأيمن وادٍ صخري سحيق، أوقف السائق سيارته فجأة، وسحب المرأة قسرًا من السيارة إلى خارجها، ونزلا إلى مسافة عشرين مترًا في الوادي السحيق، وهناك طعن المرأة بخنجره عدة طعنات، فلما تراخت وظن أنها فارقت الحياة، سلبها المال، وعاد إلى سيارته تاركًا المرأة في مكانها تنزف الدماء من جروحها.

وقصد المدينة التي كان متجهًا إليها فقد خشي أن يعود إلى المدينة التي خلَّفها وراءه؛ لئلا ينكشف أمره، إذ يعود إليها بدون مسافرين، وقبل الوقت المعقول لذهابه وإيابه..!

وعندما وصل إلى المدينة، أوى إلى مأوى السيارات، فزعم لأصحابه أن المسافرين الذين كانوا معه قد غادروا سيارته بعد عبور الجسر، ووجد ركابًا ينتظرون السفر إلى البلدة التي غادرها مساءً، فسافر بهم عائدًا من نفس الطريق.

وحين وصل إلى المكان الذي ارتكب فيه جريمته الشنعاء، أوقف سيارته، وادَّعى لركابها أنه يريد أن يقضي حاجته ثم يعود إليهم فورًا..! وانحدر إلى الوادي، فسمع أنينًا خافتًا، فقصد المرأة السابحة ببركة من الدم، وقال لها: ملعونة ألا تزالين على قيد الحياة حتى الآن!

وجمدت المرأة في مكانها، وانتظرت مزيدًا من الطعنات..!

وانحنى السائق إلى صخرة ضخمة ليحطم بها رأس المرأة الجريح، وما كاد يضع يديه على الصخرة إلا وصرخ صرخة عظيمة هزت الوادي الصخري السحيق، ورددتها جنباته الخالية إلا من الوحوش والأفاعي والهوام، وسمعها ركاب السيارة، فهرعوا لنجدته.

كانت تحت تلك الصخرة الضخمة التي أراد السائق المجرم رفعها؛ ليقذف بها رأس المرأة الجريح، حية سامة لدغته حين كان يهم بحمل الصخرة العاتية، فسقط إلى جانب المرأة يستغيث ويتألم..!

وحمل المسافرون السائق، وحملوا المرأة، وانتظروا حتى قدمت سيارة أخرى فاستوقفوها وطلبوا من سائقها حمل المرأة والسائق إلى المستشفى التي كانت في المدينة التي يستقر فيها ولد المرأة الجريحة.

وفي الطريق فارق الحياة ذلك السائق المجرم متأثرًا بالسم الزعاف.

وفي المستشفى، قدم الشرطة والمحققون العدليون، فعرفوا القصة، وانتزعوا مال المرأة من طيات جيوب السائق اللعين، وطلبت المرأة حضور ولدها، فحضر في الهزيع الأخير من الليل.. وراحت المرأة في غيبوبة عميقة، فظن الأطباء والممرضون أنها تعاني سكرات الموت.. وعمل الطبيب على نقل الدم إليها.

وفي ضحى اليوم التالي فتحت عينيها لتقول لولدها: «ادفع البدل النقدي سريعًا»، ثم أغمضت عينيها وراحت في سبات عميق ودفع الولد بدله النقدي وسُرِّح من الجيش.. وتحسنت صحة أمه يومًا بعد يوم، حتى تماثلت للشفاء حيث غادرت المستشفى إلى أهلها.

وذهب قصة نجاتها، وقصة موت السائق، وقصة الحية المنقذة، شرقًا وغربًا، وأصبح حديثها حديث الناس جميعًا.. ولقد كان الوادي الذي ارتكب السائق فيه جريمته، والذي قذف بين صخوره المرأة الجريحة، من الوديان الموحشة الخالية من الماء والكلإ، فلا يسلكه الناس ولا يطرقونه، حتى الرعاة لا يجدون فيه ما يفيد ماشيتهم فأصبح موطنًا آمنًا للذئاب والأفاعي.

وما كانت المرأة الجريحة لتسلم من الموت الأكيد، لو لم يعد إليها الجاني مدفوعًا بغريزة حب الاستطلاع.

وما كان المسافرون مع الجاني ليعرفوا موضع المرأة، لو لم يصرخ الجاني صرخة مدوية بدون شعور ولا تفكير متألمًا من لدغة الأفعى السامة.

وما كان ولدها ليدفع البدل النقدي لو قدمت أول سيارة من المدينة التي كان فيها؛ لأنها ستنقل أمه، ولضاع عليه الوقت المحدد لدفع البدل النقدي، لقد كان في ذلك كله من تدبير العلي القدير..

قال الحاكم الذي هو جار لتلك العائلة: سمعت قصة جارتنا كما سمعها الناس، فاشتركت مع الجيران الآخرين لجمع ثمن دارها؛ حتى تستعيدها من صاحبها الجديد.

وسمع صاحب الدار الجديد هو الآخر بقصتها، فأعاد إليها سند الدار وملكيتها، وبقي المبلغ الذي جمعه لها الجيران مع ثلاثمائة دينار من أصل ثمن الدار، فجددت بذلك المبلغ بناء الدار، وأقبل الناس على حانوت ولدها، يشترون سلعته ويتسابقون على معاونته.. وفي خلال سنة واحدة تضخم عمله، وأقبلت عليه الدنيا، فانتقل إلى حانوت كبير في شارع عام في موقع محترم..

ومرت السنون، وفي كل عام كان في الدار بناء جديد..

وتخرج الأولاد من مدارسهم واحدًا بعد الآخر، فأصبح أحدهم مهندسًا، والآخر طبيبًا، والثالث ضابطًا في الجيش.. ولم يعد طعامهم اليوم من الشاي والخبز، أو من الخبز والخضرة بل كان لهم لحم في كل يوم مع ألوان شهية أخرى من الطعام، وفتح الله عليهم باب بركاته، وأغدق عليهم رعايته، وجعلهم مثالًا للخُلق الكريم بين الناس، متعاونين في السراء والضراء.

وعلى ضفاف دجلة قرب الجسر الكبير في بغداد، دار عامرة بالخير، والوفاق، والسعادة، هي الدار الجديدة التي انتقلت إليها العائلة الصابرة[1].

(١) «ساعة وساعة».

القارئ والحداية (الحدأة)

عن حماد بن سلمة أن عاصم بن أبي النجود، شيخ القراء في زمانه، قال:

أصابتني خصاصة، فجئت إلى بعض إخواني، فأخبرته بأمري، فرأيت في وجهه الكراهة، فخرجت من منزله إلى الصحراء فصليت ما شاء الله، ثم وضعت وجهي على الأرض، وقلت:

يا مسبب الأسباب، يا مفتح الأبواب، يا سامع الأصوات، يا مجيب الدعوات، يا قاضي الحاجات، اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك.

قال: فوالله ما رفعت رأسي حتى سمعت وقعة بقربي، فرفعت رأسي، فإذا حدأة طرحت كيسًا أحمر، فأخذت الكيس، فإذا فيه ثمانون دينارًا وجوهرة ملفوفة في قطنة.

قال: فبعت الجوهرة بمال عظيم، وفضلت الدنانير، فاشتريت بها عقارًا وحمدت الله على ذلك[1].

(١) «حياة الحيوان» للدميري.

أربع دعوات

كان هناك رجل سكير دعا قومًا من أصحابه ذات يوم فجلسوا ثم نادى على خادمه ودفع إليه أربعة دراهم وأمره أن يشتري بها شيئًا من الفاكهة للمجلس. وفي أثناء سير الخادم مر بالزاهد منصور بن عمار وهو يقول: من يدفع أربعة دراهم لفقير غريب دعوت له أربع دعوات. فأعطاه الغلام الدراهم الأربعة فقال له منصور بن عمار: ما تريد أن أدعو لك. فقال الغلام: لي سيد قاس أريد أن أتخلص منه والثانية - أن يخلف الله علي الدراهم الأربعة، والثالثة - أن يتوب الله على سيدي والرابعة - أن يغفر الله لي ولسيدي ولك وللقوم. فدعا له منصور بن عمار، وانصرف الغلام ورجع إلى سيده الذي نهره وقال له: لماذا تأخرت وأين الفاكهة؟ فقص عليه مقابلته لمنصور الزاهد، وكيف أعطاه الدراهم الأربعة مقابل أربع دعوات.

فسكن غضب سيده وقال: وما كانت دعوتك الله؟ قال سألت لنفسي العتق من العبودية. فقال السيد: قد أعتقتك فأنت حر لوجه الله تعالى، وما كانت دعوتك الثانية؟ قال: أن يخلف الله عليَّ الدراهم الأربعة. قال السيد: لك أربعة آلاف درهم، قال: وما كانت دعوتك الثالثة؟ قال: أن يتوب الله عليك. فطأطأ السيد رأسه وبكى وأزاح بيديه كؤوس الخمر وكسرها، وقال: تبت إلى الله لن أعود أبدًا، وقال: فما كانت دعوتك الرابعة؟ قال: أن يغفر الله لي ولك وللقوم، قال السيد: هذا ليس إليَّ وإنما هو للغفور الرحيم. فلما نام السيد تلك الليلة سمع هاتفًا يهتف به: أنت فعلت ما كان إليك لقد غفر الله لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللحاضرين أجمعين.

طعامٌ بطعام

كان شيخ كريم، فقير في حاله لكنه لا يرد سائلًا قط، ولطالما لبس الجبة أو الفروة، فلقي بردان يرتجف، فنزعها فدفعها إليه وعاد إلى البيت بالإزار، وطالما أخذ السفرة من بين أولاده فيعطيها السائل، وفي يوم من أيام رمضان وقد وضعت المائدة انتظارًا للأذان فجاءه السائل يقسم أنه وعياله بلا طعام، فابتغى الشيخ غفلة من امرأته وفتح له وأعطاه الطعام كله، فلما رأت ذلك امرأته صرخت وأقسمت – من الغضب – أنها لا تبقى عنده بينما هو ساكت، ولم تمر نصف ساعة حتى قرع الباب وجاء من يحمل الأطباق فيها ألوان الطعام والحلوى والفاكهة، فسألوا: ما الخبر؟ وإذا هو أن أحد الأغنياء كان قد دعا بعض الكبار فاعتذروا، فغضب وحلف ألا يأكل أحد من الطعام، وأمر بحمله كله إلى دار الشيخ الفقير الكريم.

أخي الحبيب: أنفق ولا تخشى الفاقة فلقد قال جَلَّ وَعَلَا كما في الصحيحين: «أَنفق أُنفق عليك»، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة..».

ويرزقه من حيث لا يحتسب

وقد ذكر التنوخي في كتابه «الفرج بعد الشدة» ما يناسب هذا المقام: أن رجلًا ضاقت عليه الحيل، وأغلقت عليه أبواب المعيشة، وأصبح ذات يوم هو وأهله لا شيء في بيتهم، قال: فبقيت أنا وأهلي اليوم الأول جوعى وفي الثاني، فلما دنت الشمس للمغيب، قالت لي زوجتي: اذهب وانطلق، والتمس لنا رزقًا أو طعامًا أو أكلًا، فقد أشرفنا على الموت. قال: فتذكرت قريبة لي امرأة، فذهبت إليها، وأخبرتها الخبر، قالت: ما في بيتنا إلا هذه السمكة، وقد أنتنت قلت، عليَّ بها، فإنا قد أشرفنا على الهلاك، وذهبت بها وبقرت بطنها، فأخرجت منها لؤلؤة، بعتها بآلاف الدنانير، وأخبرت قريبتي، قالت: لا آخذ معكم إلا قسمي. قال: فاغتنيت فيما بعد، وأثثت من ذلك بيتي، وأصلحت حالي، وتوسعت في رزقي، فهو لطف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس غيره.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٩].

عاقبة الحسد

ورد أن رجلًا ترك ولدين بعد مماته وخلف لهما مالًا لا بأس به فاقتسماه وتصرف كل منهما في حقه فاشتغل الابن الأصغر في التجارة وأخلص لله في عمله وكان كثير التصدق لا يبخل على عباد الله بنعمة فنمت تجارته وازدادت أمواله وأصبح ذا ثروة طائلة ولم يكن له أعداء لذلك كانت أمواله محصنة لا يؤثر فيها حسد. أما الابن الآخر فقد سلك طريق الغواية حتى أهلك ثروته في الخمر والميسر والزنا فنفدت أمواله عن آخرها وأصبح فقيرًا لا يجد ما يقتات به ومع ذلك كان أخوه كثير العطف عليه يئويه ويقدم له من المأكل والملبس ما يكفيه. ولم يكتف هذا بعطف أخيه عليه بل أخذ الحسد يتمكن من قلبه لأخيه، وفكر في طريقة يضيع بها ثروة أخيه حتى يسير مماثلًا له في الفقر وبذلك يطمئن قلبه فلا يعايره الناس بفقره ويشيدون بسمعة أخيه فصار يجتهد للوصول إلى تنفيذ غرضه الدنيء وأخيرًا اهتدى بوحي من إبليس إلى رجل حسود اشتهر بحسده وقليل من القوم من نجا مِن حسده.

وكان الحاسد ضعيف البصر لا يكاد يرى إلا عن قُرب. فذهب الأخ الأكبر إلى هذا الرجل المشهور بحسده وطلب منه حسد أموال أخيه مقابل أجر يدفعه عند هلاك ثروته وأخذه إلى طريق كانت تمر منه تجارة أخيه فنبه الأخ الأكبر الحسود إليها (التجارة) قائلًا: استعد فقد قربت تجارة أخي وصارت على بُعد ميل واحد منا. فقال الرجل الحسود: يا لقوة بصرك أتراها على هذا البُعد؟! يا ليت لي بصر قوي مثل بصرك! فشعر صاحبنا بألم في رأسه وأظلمت عيناه وعمي في الحال ومرت تجارة أخيه سالمة لا يمسها سوء.

امرأة مغربية أدمعت أعيننا

كنا في مستشفى النور في مكة المكرمة.. في غرفة العمليات.. حين طلبنا بالنداء من غرفة الطوارئ.. وبعد أن استطعت إنهاء بعض ما أقوم به.. تركت المهمة للزملاء لحين عودتي.. ذهبت مسرعًا إلى غرفة الطوارئ.. وإذا بكل شباب الأطباء ينتظرون قدومي أو أي من الجراحين على أحرَّ من الجمر!!

امرأة مغربية جاءت للعمرة مغمى عليها.. ورجلها وأصابع قدميها زرقاء.. بل سوداء..

التشخيص واضح (غرغرينا) ولابد من بتر الجزء الميت من الأصابع والقدم قبل أن ينتقل إلى باقي الأطراف خاصة أن السكر مرتفع عند المريضة..

والمشكلة أن زوج المريضة أو محرمها يرفض التوقيع على ورقة الموافقة على إجراء العملية وإخلاء مسئولية الأطباء في حالة إجراء أي عملية جراحية.. وهو إجراء مهم في مستشفيات العالم أجمع!!

- السلام عليكم.. يا حاج أنت زوجها أم محرمها؟

- أنا زوجها..

- أنا الطبيب الجراح عبد الرحمن..

- أهلًا وسهلًا..

- لقد استدعاني الشباب من غرفة العمليات، وتشخيص الأطباء صحيح وزوجتك بحاجة إلى عملية جراحية لبتر التالف من أصابعها وقدمها.. وكما قال الأطباء: إن لم تجر العملية فقد يمتد موت الأطراف إلى مناطق أخرى من الجسم ويقتلها لا سمح الله وهي لا زالت في منتصف العمر.. أي: في الأربعينيات.. لم لا توقع هداك الله؟

والله يا دكتور.. لقد أخبرنا الأطباء في المغرب بهذا.. فرفضت التوقيع هناك.. وجئنا للعمرة طالبين من الله الشفاء، وهذا ثاني يوم لنا في مكة عمَّرها الله، وقد أقسمت لها يمينًا ألا أوقع على بتر أي طرف من أطرافها لسر تقوله هي لي فيما بعد.

- يا أخي التحلل من اليمين سهل.. خاصة والشرع يقول: الضرورات تبيح المحظورات، وكفارة اليمين ممكنة وأنت في ضرورة طبية ملحة.

- لا أستطيع يا دكتور.. لقد أقسمت لها أشد الأيمان.. وقد أقسمت أن يميني هذا لا يمكن أن أكفِّره.

- يا أخي العزيز.. أيها الحاج الفاضل.. الحرم مليء والحمد لله بالعلماء.. نستطيع إرسالك بسيارة الإسعاف.. سلهم وخذ فتواهم وسطر قرارك.

- لا يمكنني يا أخي.

حاول بعض الشباب التدخل.. منعتهم.. لقد مرت بي حالات حجاج ومعتمرين.. أمَلُّهم الموت في مكة المكرمة وأن يدفنوا فيها.. فهم يرفضون العلاج أملًا في الموت وأن يدفنوا على أرض الحرمين وهو تصرف خاطئ، لابد لعلماء الشرع من التنبيه عليه.

- كما تريد يا حاج، ولكنك مسؤول أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لو حصل أي شيء لزوجتك.. ونرجو أن تعلم ما المسئولية.. الأمر حياة أو موت وسنعطيك ورقة توقع عليها نتكلم فيها عن تشخيص حالة زوجتك وأننا شرحنا لك الأمر وأنك رافض إجراء أي عملية جراحية وأنك تتحمل كامل المسؤولية عن هذا القرار وتخلي طرف المستشفى والأطباء..

- لا مانع عندي..

وقع الورقة.. وعدت إلى غرفة العمليات لإنهاء العملية.. ورأيت الشباب قد قاموا بالواجب فشكرتهم وأنهينا العملية التي بين أيدينا والحمد لله بنجاح..

كنت شارد الفكر.. أفكر في هذه السيدة التي رفضت إجراء العملية..

إن ديننا الإسلامي الحنيف يحث على العلاج، ألم يشر المصطفى ﷺ فيما معناه أنه لا يوجد داء إلا وله دواء..

تُرى ما سبب إحجام هذه المرأة؟.. هل سأستطيع أنا وزملائي إقناعها بإجراء هذه الجراحة؟ أهو خوف المرأة من قطع قدمها وجعلها عاجزة عن السير فهي تؤثر الموت على أن تقطع أصابعها وقدمها.

كنت أفكر في كل هذا وأنا أسير نحو المرأة.. مشكلتنا حاليًا هي تخفيض مستوى السكر في الدم.. ومشكلتنا في العالم العربي أن المريض لا يعرف الحمية، ولا يستعمل الرياضة.. إنا لله وإنا إليه راجعون..

مررت على المرأة.. لا زالت في إغماء.. حالة الأصابع والقدم كما هي.. الأنسولين يعطى لها بين فترة وأخرى.. والمغذي موصل بزندها الأيمن.

خرجت من المستشفى ليلًا بعد يوم حافل من العمل.. ولكن موضوع المريضة المغربية جعلني شارد الذهن.. تُرى ما سبب امتناعها وزوجها عن إجراء العملية؟! وسبحان الله كثير من الناس يعتقد بأن الطبيب قد تعود على مواجهة الموت والمرض.. فهو يتعامل مع الموت يوميًا، ويعتقد الناس أن الطبيب لا يتأثر.. وهذا غير صحيح، فهناك أشخاص لا زالت صورهم في ذهننا رغم موتهم منذ عشرين سنة أو أكثر، بل نذكر عن البعض كل التفاصيل الدقيقة.. ويؤثر علينا بعضهم فتكون حياتنا جحيمًا.. خاصة على زوجاتنا الصابرات..

لكن، ومع كل ما نواجهه.. ما أجمل الدعاء الذي نسمعه من فم مريض بعد تخلصه من الألم.. وعند سيره على قدميه.. وعند تركه المستشفى.. إن لله عبادًا خصهم لخدمة الناس.. جعلنا الله منهم..

عـدت صباحًـا.. وكان أول ما قمت به مـروري عل المعتمرة المغربيـة.. حتى قبل مروري على من أجريت لهم عمليات بالأمس.. كانت الساعة السابعة صباحًا.. لا زالت في إغماء تام.. السكر والحمد لله قد نقص عندها ولكنه لا زال مرتفعًا.. القدم كما هي.

مـر أسـبوع والمريضة كما هي.. في حالة إغماء.. بيد أن السـكر بـدأ في الانخفاض، الحمد لله..

وكنـت أزورهم مرتـين في اليوم.. صباحًا ومسـاءً.. كانت صحتها تتحسـن ببطء شديد..

كنت أمر على مريض أجريت له عملية كبرى.. وإذا بالممرضة تجري..

- دكتور عبد الرحمن.. دكتور عبد الرحمن..

- نعم.. نعم..

- لقد عادت الحاجة إنعام إلى الوعي..

وبـدون أن أناقـش أو أتكلم.. أنهيت معاينتي للمريـض.. وسرت خلف الممرضة بخطى سريعة نحو سرير الحاجة المغربية إنعام.

- السلام عليكم يا حاجة.

- وعليكم السلام.

قالتها بصوت ضعيف.

- كيف الحال.. نرجو الله أن تكوني بكل خير.

- لا بأس.

قالتهـا بلهجة مغربية.. كان السـكر منخفضًا إلى درجة مقاربـة للطبيعي.. ورأيت تحسنًا قليلًا في أصابع القدم.

- يا حاجة كيف حال رجلك؟

- الحمد لله.

ولم أستطع أن أجلس معها.. وأحاول كشف السر.. فقد كانت ضعيفة جدًّا.. وطلبت من الممرضة أن تبدأ في مساعدتها في المشي.. فقد مر عليها أسبوعان لم تتحرك من السرير إلا بواسطة الممرضات.. بحيث يحركانها تحريكًا بسيطًا.. وكانت مسئولة العلاج الطبيعي تدلك جسدها.. عدت إلى مرضاي الآخرين.

وفي وقت لم تكن فيه عندي أي عملية.. ولا معاينة مريض.. سرت بمفردي.. حتى وصلت إلى سرير الحاجة إنعام.. كانت تجلس بدون مغذٍّ في ساعدها.. تأكل علبة لبن قليل الدسم.. وزوجها بجانبها وقد لفت الستائر سريرها فأعطتها نوعًا من الخصوصية.

سلمتُ فابتسما.. أخذت الأوراق المعلقة على السرير لرؤية آخر تحليل سكر لها.. ضربات القلب، ضغط الدم.. وفحصت القدم، لقد خف اللون قليلًا.. مما يدل على تحسن في الوضع.

- يا حاجة إنعام . كيف الحال؟

- بأسعد حال يا دكتور.. كل صلاة بمائة ألف صلاة، هل هذا المستشفى في الحرم؟

- نعم يا حاجة إنعام.. أنت في منطقة الحرم..

- الحمد لله..

- يا حاجة إنعام.. هناك سؤال أريد أن تجيبيني عليه.. ما موضوع رفضك العملية؟

- يا دكتور لن تؤمن أو تصدق بما أقول..

- كيف تحكمين على شيء مقدمًا؟!.. قُصّي قصتك ولنر هل أصدقها أم لا؟

- كنت في المغرب.. وبدأت رجلي يتغير لونها.. وقال الأطباء: لابد من قطعها.. وكنت مقررة دخول المستشفى لإجراء عملية البتر.. ولكنني نمت.. فرأيت فيما يرى النائم ملكًا سلم عليَّ وقال: تقبل الله صيامك هذا اليوم وصلاة تهجدك ودمعاتك بعد الدعاء.. جاء الشفاء من الله.. جاء الشفاء من الله.. اذهبي إلى بيت الله الحرام.. ولا بتر؛ بل شفاء.. لا بتر.. بل شفاء.. فسألت الملك:

– أوهم أنت أم حلم؟

– أنا ملك من ملائكة الله الصالحين إن شاء الله.. جئتك مبشرًا أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

– صحوت.. فسألت مشايخ مراكش عن هذا الحلم.. فأجمع الجميع على أنه حلم حقيقي.. وأن الشفاء قادم بإذن الله تعالى..

– وعندها صدقت الشيوخ.. وسافرت لأرض الحرمين الشريفين.. ابتدأت بزيارة المسجد النبوي الشريف ثم جئت مكة عمرها الله.. وحصل ما حصل.. ما رأيك يا دكتور؟

– أما الرؤيا.. فلست من مفسري الأحلام.. ولابد من سؤال شيوخنا هنا عنها.. أما عن الشفاء فهو بإذن الله وأمر الله.. والله الشافي المعافي..

مرت شهور ثلاثة.. وإذا بالحاجة إنعام تسير على قدميها ويختفي اللون الأزرق.. وتنتهي الغرغرينا.. كانت تغسل رجلها يوميًّا بماء زمزم بنية الشفاء.. وكانت مؤمنة بالشفاء.. وقد شفاها الله.

ملاحظة: رويت هذه القصة لمجموعة أطباء.. فأخبروني بأن حالات مشابهة قد حصلت في أفغانستان أثناء الجهاد الأفغاني، والبوسنة والهرسك، وكوسوفو، والشيشان.. وسبحان الشافي.

يا صاحب الهم إنَّ الهمَّ منفرجٌ ... أبشرْ بخيرٍ فإن الفارجَ الله

وإذا ابتليتَ فثقْ بالله وارضَ به ... إنَّ الذي يكشف البَلْوى هو الله

الله يُحْدِث بعد العسرِ ميسرةً ... لا تجزعنَّ فإنَّ المقدر الله[1]

(١) «قصص واقعية».

لا دخرتهم ذخرا

وكان أحد الصالحين مبتلى في أولاده، فكلما جاءه ولد وترعرع قليلًا وفرح به خطفه الموت، وتركه حزينًا كسير القلب، ولكن الرجل لشدة إيمانه لا يملك إلا أن يحتسب ويصبر ويقول: لله ما أعطى ولله ما أخذ، اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرًا منها، حتى كان الولد الثالث وبعد سنوات مرض الولد واشتد به المرض وأشرف على الموت، والأب إلى جواره تدمع عينه، فأخذته سِنَة من النوم فرأى في منامه أن القيامة قد قامت، وأن أهوال القيامة قد برزت فرأى الصراط وقد ضرب على متن جهنم واستعد الناس للعبور، ورأى الرجل نفسه فوق الصراط، وأراد أن يمضي فخشي الوقوع فجاءه ولده الأول الذي مات يجري وقال: أنا أسندك يا أبتاه، وبدأ الأب يسير ولكنه خشي أن يقع من الناحية الأخرى فرأى ولده الثاني يأتيه ويمسك بيده من الناحية الثانية.

وفرح الرجل أيما فرح، وبعد أن مضى قليلًا شعر بعطش شديد، فطلب من أحد ولديه أن يسقيه. قالا: لا إن أحدنا إن تركك وقعت في النار فماذا نفعل. قال أحدهما: يا أبي لو كان أخونا الثالث معنا لسقاك الآن. وتنبه الرجل من نومه مذعورًا يحمد الله على أنه لا يزال على قيد الحياة ولم تحن القيامة بعد، وحانت منه التفاتةٌ نحو ولده المريض بجانبه فإذا هو قد قُبض (مات) فصاح: الحمد لله لقد ادخرتك ذخرًا وأجرًا وأنت فرطي على الصراط يوم القيامة، وكان موته بردًا وسلامًا على قلبه.

رب لا تذرني فردًا

تزوجت منذ أكثر من سبع سنوات..

الحمد لله كل ما أنشده - من وجهة نظري - وجدته، أنا مستقر في عملي، مستقر في زواجي.. لا أشكو إلا الملل، فأنا وزوجتي لم نرزق بالأبناء، ومن هنا بدأ الملل.. وكثرت زيارة الأطباء.. أعتقد أنني بذلت كل جهدي؛ سافرت للداخل والخارج، عندما أسمع عن طبيب قادم متخصص في العقم.. أحجز عنده موعدًا.. التحاليل كثيرة والأدوية كثيرة.. ولكن دون فائدة.. أصبح أكثر حديثنا أنا وزوجتي الطبيب الفلاني..!! ماذا قال..؟! وماذا سنتوقع؟!

التوقعات تستمر لمدة سنة أو سنتين، فمرحلة العلاج طويلة، منهم من أخبرني أن العقم مني، والبعض الآخر قال: إنه من زوجتي، صارت أيامنا مراجعة أطباء وبحث عن حل، أصبح هاجس الطفل يسيطر على مشاعرنا، وعلى الرغم من أنني أحاول ألا أشعر زوجتي بذلك إلا أنها تشعر بما يدور، فالأسئلة كثيرة، وهناك من يسألها:

- ماذا تنتظرين؟

وكان الأمر بيدها.. منهم من ينصحها باسم طبيب في المكان الفلاني.. لقد ذهبت إليه فلانة وأنجبت طفلًا.. وهكذا أصبح مجتمع زوجتي له نصيب كبير من الأسئلة، ولم يقل لنا أحد:

- لماذا لا تتجه إلى الله وتدعوه دعوة صادقة؟!

سبع سنوات مضت ونحن نلهث وراء الأطباء.. وتركنا الدعاء.. وتركنا التوجه إلى الله.. ذات مساء.. عبرت طريقًا، فإذا بشخص كفيف يريد أن يعبر الطريق، أمسكت

بيده.. وعبرت به الجزء الأول من الطريق.. ووقفنا في المنتصف، ننتظر خلو الشارع من السيارات.. فدعا لي بالتوفيق والصحة.. ووجدها فرصة ليسألني:

- هل أنت متزوج؟

فأجبته:

- نعم..

- ألك أبناء؟

فقلت له:

- لم يقدِّر الله لي ذلك، منذ سبع سنوات ونحن ننتظر الفرج..

عبرنا الطريق.. ولما أردت أن أودعه قال لي:

- يا بني.. جرى لي ما جرى لك، وأخذت أدعو في كل صلاة ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، والحمد لله لي من الولد سبعة، ضغط يدي، وقال:

- لا تنس الدعاء.

ولم أكن أحتاج إلى توصية، فقد وجدت مفقودًا.. أخبرت زوجتي بما حدث لي، وتجاذبنا أطراف الحديث.. أين نحن من الدعاء؟ كل شيء بحثنا عنه وجربناه.. وكل طبيب سمعنا به طرقنا بابه.. فلماذا لا نطرق باب الله؟ وهو أوسع الأبواب وأقربها، فذكرت زوجتي أن امرأة مسنة قالت لها منذ سنين:

- عليك بالدعاء.

ولكن كما قالت زوجتي:

- كان في ذلك الوقت مواعيد لا حصر لها مع الأطباء.

أصبحت مراجعاتنا للأطباء، مراجعة عادية، دون تلهف أو قلق، مراجعات عادية، نبحث عن علاج محدد فقط.. يكون سببًا من الأسباب.. توجهنا أخيرًا إلى الله بقلوبنا.. في الصلوات المكتوبة وفي جوف الليل.. تحرينا أوقات الإجابة، ولم يخب الظن، ولم يرد، بل فتح الله باب الإجابة وحملت زوجتي، ووضعت طفلة، تبارك الله أحسن الخالقين، لم نُخْفِ السرور والفرح.. لكننا الآن ندعو:

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤][1].

(١) «قصص واقعية».

جئت لأسرقه فسرقني

ذُكر أن لصًّا تسوَّر دار مالك بن دينار، فلم يجد في الدار شيئًا يسرقه، فرآه وهو قائم يصلي فأوجز مالك في صلاته، ثم التفت إلى اللص، وسلم عليه، وقال: يا أخي، تاب الله عليك، دخلت منزلي فلم تجد ما تأخذه، ولا أدعك تخرج بغير فائدة، وقام وأتاه بإناء فيه ماء، وقال له: توضأ وصلِّ ركعتين؛ فإنك تخرج بخير مما جئت في طلبه، فقال اللص: نعم وكرامة، وقام وتوضأ، وصلى ركعتين، وقال: يا مالك أيخفُّ عليك أن أزيد ركعتين أخريين؟

قال: زد ما قدر الله لك.

فلم يزل اللص يصلي إلى الصبح.

فقال له مالك: انصرف راشدًا.

فقال: يا سيدي، عليك أن أقيم عندك هذا اليوم؛ فإني قد نويت صيامه.

فقال له مالك: أقم ما شئت، فأقام عنده صائمًا قائمًا، فلما أراد الانصراف.

قال اللص: يا مالك، قد نويت التوبة.

فقال مالك: ذلك بيد الله عَزَّوَجَلَّ، فتاب اللص وحَسُنَت توبته، وخرج من عنده فلقيه أحد اللصوص.

فقال له: أظنك وقعت بكنز؟!

فقال: يا أخي، وقعت بمالك بن دينار، جئت لأسرقه فسرقني، وقد تُبت إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وها أنا ملازم الباب فلا أبرح حتى أنال ما ناله الأحباب.

الزوجة الصالحة

كان يسير بسيارته في شارع الكورنيش كعادته عندما يحتاج إلى الترويح عن نفسه من ضغوط الحياة اليومية.. في الوقت الذي كان ينبعث من مذياع سيارته صوت مطربته المفضلة وهي تشدو: يا فؤادي لا تسل أين الهوى، كان يحب أم كلثوم لدرجة الجنون، ويطرب لأغانيها لدرجة الهيام! وحين يستمع إليها وهي تصدح بالغناء يجنح خياله إلى فضاءات وردية، أساسها الأحلام وغايتها (اللاشيء).

في العادة لا تنتهي جولة (الترويح عن النفس) هذه قبل المرور على عدد من الجمعيات التجارية، يتخللها ترقيم.. غزل.. معاكسات.. وغيرها من تصرفات الشباب الطائش!! لكن الجولة هذه المرة تبدو غريبة بعض الشيء! إذ لم يكن سليمان يطارد الفتيات من أجل الظفر بواحدة يتسلى بها، وإنما كانت نظراته هذا اليوم تتجه صوب كل رجل تصحبه زوجته وتبدو عليها أمارات حداثة العهد بالزواج!! حتى تفكيره هذا اليوم ليس ككل يوم كان.. يقول في نفسه كلما رأى رجلًا وزوجته:

- يا سلام.. والله الزواج شيء حلو.. أكيد إنهم الآن مستأنسون.

كانت فكرة الزواج تداعب رأس سليمان منذ فترة، وأصبح الآن يفكر فيه بجدية سيّما وأنه قد تقلد وظيفة محترمة وأصبح له دخل ثابت.

عاد ذلك اليوم إلى المنزل وقابل والدته فطلب منها أن تصحبه إلى غرفته لأمر خاص.

لم تفاجأ الأم بطلب سليمان، هو فعلًا أصبح بحاجة للاستقرار وبناء عش زوجية جميل قبل أن ينزلق في طريق موحل في زمن كثرت فيه الفتن والمغريات.

عندما سألته والدته عن شروطه في الزوجة التي يرغبها، قال سليمان:

– أريدها أن تكون ذات دين ومقبولة الشكل، كانت والدته قبل ذلك تقول له: يا سليمان الدين أهم شيء هذه الأيام، وأنا أمك والبنت التي لا تخاف ربها ما فيها خير.

كان سليمان يهز رأسه دليلًا على موافقته على كلام أمه، لكنه لم يكن يعي معنى أن تكون الزوجة (ذات خلق ودين).

لم يكن سليمان شابًا مستقيمًا، لكن من يعرفه يعرف أنه شاب معتدل، لا يدخن، لا يصاحب سيء الخلق، لكنه مع ذلك لم يكن بمنأى عن المعاصي!

بعد عدة أشهر من البحث عن زوجة لسليمان، دخلت والدته إليه في غرفته وأخبرته بأنها وجدت الفتاة المناسبة له، وهي طالبة جامعية ذات خلق ودين، لها أنشطة دعوية في الجامعة وفي المناشط النسائية الخيرية، علاوة على ذلك كانت آية في الجمال.

وافق سليمان على الاقتران بهذه الفتاة، وتم الزفاف، ودخل سليمان القفص الذهبي كما يقولون.. وبدأ حياة جديدة طلق بها حياة (القرف) كما كان يقول لي قبل زواجه.. ودخل حياة الهناء كما كان يتصور!

بدأت تتضح معالم التغير في سليمان وفي حياته منذ أول يوم في حياته الجديدة.

في ليلة الدخلة وبينما كان يغط في نوم عميق – وما أثقل نومه – شعر بيد ناعمة لم يعهدها تهز كتفه: سليمان، سليمان، هيا قم لصلاة الفجر، المؤذن أذن منذ قليل.. قال سليمان لنفسه:

– ما هذه البلوى؟ أخشى أن نكون قد بدأنا النكد من أول ليلة.

قام سليمان إلى الصلاة يدافع الحياء من زوجته (المستقيمة)، فقد خشي أن تأخذ عنه فكرة سيئة منذ أول يوم في حياته معها، لم يكن سليمان يقصر في صلاة الفجر، لكنه

لم يكن يصليها في وقتها مع الجماعة وإنما يؤخرها حتى يحصل له الاكتفاء من النوم الذي لم يكتف منه يومًا ما!

توضأ سليمان وذهب للصلاة في المسجد، وأحس وهو في الطريق بعالم غريب! فهو لم يصل الفجر في جماعة منذ زمن طويل! أعجبه الهدوء والصمت، وهو في الطريق سأل نفسه: أين أنا من هذه الفريضة؟!

أسئلة كثيرة تراكمت في رأسه، وكان كمن صحا لتوه من سبات طويل لا يضاهيه إلا سبات أهل الكهف في كهفهم.

لسليمان صديق مقرب منه، كانا يعرفان عن بعضهما كل صغيرة وكبيرة، وهذا ما تعاهدا عليه منذ الصغر، لكنهما انقطعا عن بعضهما بعد زواج سليمان بسبب سفره للعمل في مدينة أخرى، وبعد عام ونصف التقيا وما إن رأيا بعضهما حتى هاله ما حدث لسليمان، فلا المظهر مظهر سليمان القديم، ولا المخبر كذلك، تحدث سليمان إلى صديقه عن نعمة الله عليه بهذه الزوجة التي استطاعت أن تقلب حياته رأسًا على عقب.

فبعد أن كان سادرًا في غيه لا يدري ما غايته في الحياة وكأنه عضو زائد فيها، أصبح يشعر بقيمته في بيته وعند أهله ووسط مجتمعه.

لقد أصبح يكنى سليمان بـ(أبو إبراهيم)، وهو اليوم إمام مسجد في المدينة التي يعمل بها، وله نشاطات دعوية في هذه المدينة.

هذه هي قصته مع زوجته المستقيمة التي جعلته شيئًا آخر بعد أن لم يكن شيئًا.. قال رسول الله ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك». صدق رسول الله ﷺ.

الرجل على دين خليله

يقول التائب: كنت أتمايل طربًا، وأترنح يمنة ويسرة، وأصرخ بكل صوتي وأنا أتناول مع (الشلة) الكأس تلو الكأس، وأستمع إلى صوت (مايكل جاكسون) في ذلك المكان الموبوء، المليء بالشياطين، الذي يسمونه (الديسكو).

كل ذلك في بلد عربي، أهرب إليه كلما شجعني صديق أو رفيق، فأصرف فيه مالي وصحتي، وأبتعد عن أولادي وأهلي، وأرتكب أعمالًا عندما أتذكرها ترتعد فرائصي، ويتملكني شعور بالحزن والأسى، لكن تأثير الشيطان عليَّ كان أكبر من شعوري بالندم والتعب.

استمرت هذه الحال، وانطلق بي هوى النفس إلى أبعد من ذلك البلد العربي، وأصبحت من عشاق أكثر من عاصمة أوروبية، وهناك أجد الفجور بشكل مكشوف وسهل ومرن.

وفي يوم من أيام أواخر شهر شعبان أشار عليَّ أحد الأصدقاء بأن نسافر إلى (بانكوك) وقد عرض عليَّ تذكرة مجانية، وإقامة مجانية أيضًا، ففرحت بذلك العرض، وحزمت حقائبي وغادرنا إلى (بانكوك) حيث عشت فيها انحلالًا لم أعشه طوال حياتي.

وفي ليلة حمراء اجتمعت أنا وصديقي في أحد أماكن الفجور، وفقدنا في تلك الليلة عقولنا، حتى خرجنا ونحن نترنح، وفي طريقنا إلى الفندق الذي نسكن فيه أصيب صديقي بحالة إعياء شديدة، ولم أكن في حالة عقلية تسمح لي بمساعدته، لكني كنت أغالب نفسي، فأوقفت سيارة أجرة حملتني إلى الفندق.

وفي الفندق، استدعي الطبيب على عجل، وأثناءها كان صديقي يتقيأ دمًا، فأفقت من حالتي الرثة، وجاء الطبيب ونقل صديقي إلى المستشفى، وبعد ثلاثة أيام من العلاج

المركز عدنا إلى أهلينا وحالة صديقي الصحية تزداد سوءًا، وبعد يوم من وصولنا نقل إلى المستشفى، ولم يبق على دخول رمضان غير أربعة أيام.

وفي ذات مساء ذهبت لزيارة صديقي في المستشفى، وقبل أن أصل إلى غرفته لاحظت حركة غريبة، والقسم الذي فيه صديقي (مقلوب) على رأسه، وقفت على الباب فإذا بصراخ وعويل.

لقد مات صاحبي لتوه بعد نزيف داخلي عنيف، فبكيت، وخرجت من المستشفى، وأنا أتخيل أنني أنا ذلك الإنسان الذي ضاعت حياته وانتهت في غمضة عين، وشهقت بالبكاء وأنا أتوب إلى الله، وأنا أستقبل رمضان بالعبادة، والاعتكاف، والقيام، وقراءة القرءان، وقد خرجت من حياة الفسق والمجون إلى حياة شعرت فيها بالأمن والأمان والاطمئنان والاستقرار، وقد كنت بعيدًا عن ذلك أستمرئ المجون والفجور، حتى قضى صاحبي نحبه أمامي، فأسأل الله أن يتوب عليَّ[1].

أخي الحبيب: احرص على صحبة الصالحين الذين يأخذون بيديك إلى مرضاة الله جَلَّ وَعَلَا.. والذين يشفعون فيك يوم القيامة بعد أن يأذن لهم الحق جَلَّ وَعَلَا.

أما سمعت قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[2]. واحذر صحبة الأشرار فهم يقودونك إلى جهنم وبئس القرار.

(١) «العائدون إلى الله».

(٢) حسن رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

كلمتان عظيمتان

قال الإمام أحمد: كلمتان نفعني الله بهما في المحنة:

الأولى - لرجُلٍ حُبس في شرب الخمر، فقال: يا أحمد، اثبت، فإنك تُجلَد في السُّنَّة، وأنا جُلدتُ في الخمر مرارًا، وقد صبرتُ. ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

الثانية- لأعرابيٍّ قال للإمام أحمد، والإمام أحمد قد أُخِذ إلى الحبس، وهو مقيَّدٌ بالسلاسل: يا أحمد، اصبر، فإنَّما تُقتل من هنا، وتدخُل الجنة من هنا. ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١].

حبسه الله في جسده

إنه أحمد بن أبي دؤاد الإيادي المعتزلي قاضي المعتصم، الذي جر البلاد إلى محنة خلق القرءان، وبسببه أهين علماء الأمة، وعذبوا وسجنوا وقتلوا.

تكلم في أحمد بن حنبل وعاب معتقده، وبسببه قتل أحمد بن نصر الخزاعي، وسجن الإمام أحمد وعذب بالسياط، فدعا عليه الإمام أحمد، فحبسه الله في جسده كما حُبس الإمام، ودخل عليه وعاده عبد العزيز الكناني، وقال له:

- لم آتك عائدًا، بل لأحمد الله أن سجنك في جلدك.

قال ابن كثير: ابتلاه الله بالفالج - وهو شلل يصيب نصف البدن - قبل موته بأربع سنوات حتى بقي طريح الفراش، لايستطيع أن يحك شيئًا من جسده، وحُرم لذة الطعام والشراب والنكاح وغير ذلك.

جعل الله نصف جسده لو سقطت عليه ذبابة فكأنما نهشته السباع، والنصف الآخر لو نهشته السباع ما أحس بها!! وقد دخل عليه بعضهم فقال له:

- والله ما جئتك عائدًا إنما جئتك لأعزيك في نفسك، وأحمد الله الذي سجنك في جسدك الذي هو أشد عليك عقوبة من كل سجن.

ولما مات لم يحتفل به أحد، ولم يلتفت إليه أحد، وما شيعه إلا قليل من أعوان السلطان، جزاءً وفاقًا.

لكن لما مات أحمد بن حنبل، كانت جنازته أكبر جنازة في تاريخ المسلمين.

بعد رحلة الإدمان.. مات ساجدًا للرحمن

شاب كان مسرفًا على نفسه بالمعاصي والآثام.. ومن كثرة معاصيه أنه كان لا يتوانى عن فعل أي معصية.. يتعاطى المخدرات ويفعل الفواحش.. بل وصل الأمر إلى أنه كان يضرب أمه وأباه..

فلما استحالت العشرة بينه وبين أسرته جعلوا له غرفة في السطح يعيش فيها وحده بعيدًا عنهم.

وفي يوم من الأيام يتعاهد أربعة من الإخوة الصالحين أن يأتوا إلى هذا الشاب العاصي لينصحوه.. فصعدوا إلى غرفته فوجدوه سكرانًا فاقد العقل فجلسوا معه وحاولوا أن يكلموه لكنه لا يشعر بهم.. جلسوا معه حتى أفاق قليلًا ثم بدأوا يُذكرونه برحمة الله وبالجنة والنار فإذا به يبكي ويقول: والله ما سمعت من قبل هذا الكلام فأريد أن آتي معكم.

فذهبوا به معهم وكانوا مسافرين فسافروا خارج المدينة التي هو فيها ونزلوا في أحد المساجد وكان هذا الشاب معهم مُعلنًا توبته إلى الله لكنه كان ما يزال يعاني من أثر المخدرات حتى أنه صاح بهم في الليل: قوموا فاربطوني بالحبل فإني أخشى أن أخرج لأبحث عن المخدرات.

قالوا له: هيا نذهب بك إلى المستشفى، قال: لا، بل اربطوني.

فربطوه ربطًا شديدًا ومع ذلك استطاع أن يتخلص من ذلك القيد وجلس يبكي بجوارهم من شدة الألم.

واستمر على تلك الحالة خمسة عشر يومًا وهو يعاني من ألم التخلص من المخدرات.. لكنه صادق في توبته.. نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحدًا وبعد خمسة عشر يومًا أراحه الله من آثارها.

وذهبوا به إلى المستشفى فلما أجرى الطبيب بعض التحاليل وإذا به يقول: لا يمكن أن يكون هذا الرجل قد تعاطى مخدرات من قبل.

ومكث هذا الشاب ثلاثة أشهر غائبًا عن أهله.. أما أهله فلم يسألوا عنه لأنهم يئسوا منه فظنوا أنه قُبض عليه أو أنه مات في حادث ليستريحوا من أذاه.

وبعد ثلاثة أشهر يذهب إلى منزل أسرته ويقرع الباب فتفتح أمه لترى ابنها الذي اختفى منذ ثلاثة أشهر.. تراه وقد تغير وجهه وزادت هيئته بهاءً وجمالًا ووقارًا فأقبل على أمه ليعانقها ويُقَبِّل رأسها ويبكي ويطلب منها أن تسامحه فقالت أمه: سامحتك يا بني.

فقال لها: يا أماه أشتهي أن آكل طعامًا من صنع يديك.. فقامت الأم تصنع له طعامًا.. فقام وكبَّر للصلاة وقرأ وركع ورفع وسجد وأطال السجود.. وجاءت أمه بالطعام لترى ولدها ساجدًا فأخذت تبكي بكاءً شديدًا فرحًا بهداية ولدها لكن ابنها أطال السجود ثم أطال السجود.. فنادت عليه أمه فلم يُجبها.. حرَّكته فإذا به قد مات ساجدًا..

دخل جيرانه ودخل أهله ليروا هذا الشاب الذي كان في غاية الإجرام والفساد.. وإذا به يموت ساجدًا..

فتشوا جيبه وأخرجوا أوراقه وإذا فيها وصية مكتوبة.

أتدرون ما هي وصيته؟.. كانت وصيته أنه إذا مات فعلى أمه أن تخيط له الأكفان وأن يحمل جنازته شباب الحي الذين كان يعرفهم قبل الالتزام حتى يتوبوا إلى الله وأن يكون الذي يدفنه هو أبوه[1].

(١) «ساعة وساعة» ص (٣٢٠، ٣٢١).

هناك صنف من الناس كان مسرف على نفسه في المعاصي والموبقات فعلوا أشنع الجرائم من قتل وسفك للدماء وسرقة وربا وزنا ومخدرات ونحو ذلك. تجردوا من دينهم وآدميتهم وفعلوا من الجرائم ما تقشعر من سماعها الجلود وتطيش من هولها العقول، فحكم عليهم بالإعدام ومنهم من حكم عليه بالسجن جزاء جرائمهم، فلما أيقنوا بالموت وأحسوا باقتراب الأجل تابوا وأنابوا إلى الله وفاقوا من غيهم فكان من رحمة الله بهم أن حكم عليهم بالإعدام ليفيقوا من غفلتهم، ويتنبهوا من رقدتهم ففزعوا ينفضون غبار المعاصي عن أبدانهم ويزيلوا الغشاوة من على أبصارهم ويسكبوا العبرات على ما جنت أيديهم من الموبقات فسبحان مقدِّر الأقدار. ونحن نذكر قصص بعض هؤلاء وكيف تداركهم الله برحمته.

قال الشيخ أحمد فريد حفظه الله:

جمع القدر بين هؤلاء الشباب الذين وقعوا في هذه الجرائم وبين أحد إخواننا الكرام وهو أخونا أبو عبد الرحمن حيث قدر له أن يسجن في عنبر الإعدام فإذا به يتعرف على هؤلاء الشباب الذين يلبسون البدلة الحمراء بدلة الإعدام ففتح لهم قلبه وأخذ يستمع إلى قصصهم وما جنت أيديهم فأخذ يدعوهم إلى التوبة ويفتح لهم باب الرجاء ويحدثهم عن رحمة الله وذكر لهم قصة القاتل مائة نفس من بني إسرائيل لما تاب قَبِله الله فإذا بالنور يتسرب إلى قلوبهم فتحيا قلوبهم بعد أن أوشكت على الموت فأخذوا يتسابقون إلى طاعة الله فتسابقوا في حفظ القرءان والقيام والصيام، والذكر والاستغفار.. فما عرفوا الحياة إلا في هذا المكان، وقد كانوا من قبل يعيشون حياة الأنعام[1].

(١) «قصص التائبين» د/أحمد فريد.

عجائب الرحمة بقاتل أمه

قال أبو عبد الرحمن: كانت بداية القصة، وأنا أتصفح جريدة من الجرائد اليومية، حيث قرأت خبر حادثة شنيعة تحت عنوان: «جريمة فظيعة هزت الإسكندرية».

شاب يقتل أمه لأنها رفضت زواجه من إسرائيلية: وقعت الجريمة في دائرة قسم محرم بك، وشاءت الأقدار أن أنزل في هذه الآونة معتقلًا سياسيًّا في هذا القسم لبضعة أيام، والتقيت بهذا الشاب فوجدته شابًّا نحيفًا طويل القامة، هادئ الطبع، وكانت زنزانتي بجوار زنزانته، وكان يمرّ عليّ عند ذهابه للوضوء، فلفت نظره أنني رجل ملتحي، وأقبل إليّ متلهفًا، وكأنه وجد ضالته، وقال لي: يا شيخ إنني ارتكبت جرمًا كبيرًا، إنني قتلت أمي فهل لي من توبة، فقلت له: يا أخي إن كان ذنبك عظيمًا فعفو الله عَزَّوَجَلَّ أعظم، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فتهلل وجهه بالفرح، فقلت له: يا أخي تب إلى الله، وأكثر من الاستغفار والدعاء لأمك، عسى الله أن يعفو عنها بدعائك فتعفو عنك يوم القيامة، فيغفر الله لك.. وافترقنا على ذلك، وذهبت إلى معتقلي، وكنت أسكن في عنبر الإعدام، ومرت الأيام تلو الأيام.. وفي ذات يوم رأيت ذلك الشاب داخلًا عليّ العنبر، وقد حكم عليه بالإعدام، فاعتنقته وقلت له: هل تذكرني؟ فقال: نعم أذكرك جيدًا، فأنت الذي فتح الله عليّ بك أبواب الرحمة، وأبشرك بأنني منذ تركتك وأنا مواظب على الصلاة والذكر والدعاء لأمي، عسى الله أن يغفر لي ويرحمني.. وقد كان كما قال، فرأيته شغوفًا بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، كالجائع المحروم الذي يتوق إلى الطعام فأتته الأطعمة بعد حرمان طويل، كان مواظبًا على قراءة القرءان، وكان حريصًا على ختمه كل سبعة أيام، وما يعلم بشيء من الخير أمر به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا وكان من المسارعين إليه، وكان حريصًا على أن يكون سببًا في الحياة الطيبة

لأمه في الآخرة، كما كان سببًا لانقطاع الحياة عنها في الدنيا، علم ذات يوم أن حفظ القرآن الكريم كاملًا شفع في عشرة من أهله يوم القيامة، وكسي والداه حُلَّة الكرامة، فيكرمان على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، فقال لي: يا شيخ أحق هذا؟ قلت له: حق ورب الكعبة فاجتهد، وتوكل على الله، ولا تيأس من رحمة أرحم الراحمين.

فقال لي: وهل من الممكن أن أصل إلى هذه الدرجة؟! فقلت له: ولم لا.. والله عَزَّوَجَلَّ أكرم الأكرمين ألم يَمُنَّ على الصحابة فأخرجهم من ظلمات الشرك وهو أعظم من القتل - إلى نور الإيمان - وهو أكبر الأعمال - بل وجعلهم أصحابًا لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بل وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، فأخرج بهم العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.. فبكى وقال: ذنبي كبير يا شيخ.. ذنبي كبير كبير فأنا لم أقتل جارًا، ولا صاحبًا، ولا صديقًا، ولم أقتل إنسانًا عاديًا: «أنا قتلت أمي»، وانهمرت عيناه بالبكاء.

فقلت له: أخي أبشر بعفو الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

وماذا يساوي ذنبك في عفو أرحم الراحمين..و اعلم أخي أن الشيطان يوم القيامة يتطاول بعنقه رجاء أن تصيبه رحمة الله، أتدري لماذا؟!

يا أخي إن الله عَزَّوَجَلَّ خلق الرحمة مائة رحمة، أنزل منها واحدة في الدنيا، وادَّخر منها تسعة وتسعين إلى يوم القيامة.

تخيل يا أخي الحبيب برحمة واحدة يتراحم الناس فيما بينهم.. برحمة واحدة ترفع الفرس حافرها عن ولدها مخافة أن تصيبه.. برحمة واحدة يرزق الله الكافر ويسبغ عليه الكثير من النعم، فيطعمه، ويسقيه، ويكسوه، كل ذلك برحمة واحدة، فتخيل يا أخي الحبيب كيف تكون رحمة الله في يوم يتطاول الشيطان بعنقه طمعًا في هذه الرحمة ترى ما الذي دعى الشيطان إلى أن يتطاول بعنقه لتصيبه الرحمة، أتدري لماذا؟! لأنه رأى عجبًا،

رأى ذنوبًا كبيرة عظيمة يغفرها الله عَزَّوَجَلَّ ولا يبالي، وما يدريك لعلك يا حبيبي أن تكون عجيبة من عجائب الرحمة، تجعل الشيطان يتطاول بعنقه راجيًا للرحمة عندما يراك وأنت تساق إلى الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وسبحان الله! ما إن سمع هذه الكلمات إلا ورأيت النور يشرق في جبينه، ورأيت الفرح والسرور مزينًا لوجهه، فرحًا بالله عَزَّوَجَلَّ، فرحًا بعفو الله، فرحًا بعجائب الرحمة، وساعتها عاهدني أن يحفظ القرءان حتى يختمه، وصدق في وعده فكان يحفظ كل يوم ربعًا من القرءان أو ربعين. وكان يسمعها غيبًا، وفتح الله عليه فأخذ يقرأ في كتب العلم والفقه والعقيدة والسيرة، حتى أنعم الله عليه بقسط من العلم، واستمر على هذه الحال، وكان دومًا في ازدياد والحمد لله رب العالمين، حتى حفظ القرءان كاملًا وكان يقوم به الليل كل أربعة أو خمسة أيام، وأحيانًا كان يقرأ في الليل بألف آية، وصام شهرين متتابعين كفارة القتل ثم بعد ذلك كان يصوم يومًا ويفطر يومًا فكان صوامًا قوامًا، حتى تمنيت أن أكون على مثل حاله في العبادة والصبر عليها، وكان كثيرًا ما يقول لي: كم أنا في شوق إلى ربي عَزَّوَجَلَّ، كفى بالموت تحفة للمؤمن.

يا شيخ! إن أعظم يوم في حياتي هو ذلك اليوم الذي ينفذ عليَّ فيه حكم الإعدام؛ لأنه يوم اللقاء مع الحبيب، يوم الرجوع إلى الغفور الشكور، الذي يغفر الكثير من الزلل، ويقبل القليل من العمل.

فقلت له: جعلك الله من الصادقين فأبشر يا أخي برحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وفي آخر يوم له في الحياة قال لي: أنا أشعر بأنني سوف يفرج عني من سجن الدنيا هذه الأيام، فبماذا تنصحني أن أفعله لكي أفوز في هذا اليوم بأفضل الأعمال، وأعظم الأجور، فقلت له: احرص على قول لا إله إلا الله، فإنها أفضل الذكر، وأعظم في الميزان من السموات والأرض، فقال لي: ما رأيك في أن أكثر من قول لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين؟ فتبسمت

وقلت له: لقد اخترت دعاء عجبًا فإن أوله تهليل وأوسطه تسبيح وآخره اعتراف بالذنب فأكثر منه وأرجو من الله أن يرحمك به وأن يتقبله منك برحمته ولا تنسَ أن تصلي ركعتين سنة القتل ولا تفتر عن الذكر والدعاء.. وكان عنده شيء من الطعام الطيب فاستأذن وتركني مسرعًا وقال لي: أريد أن أفعل شيئًا قبل فوات الأوان فأخذ الطعام وتصدق به على إخوانه فقلت له: كم بقي من الطعام يا فلان، فقال لي: بقي كله إن شاء الله.

ثم فارقني وهو يقول: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين». وفي عينه نظرات الوداع، وكأنه كان يشعر بما ينتظره من أمر الله عَزَّوَجَلَّ.. وبعد أن مضى الليل وبرق الفجر، ورفع الأذان مجلجلًا في أرجاء الكون فاستيقظت لصلاة الفجر: واستيقظ هو وكل من حولنا، وحانت ساعة الصفر فقطع سكون الصوت صوت خطوات كثيرة مسرعة تتجه نحو حجرة صاحبي ففتحوا عليه الباب في خفة الطيور فوجدوه قد فرغ من صلاته. ممسكًا بكتاب ربه، يرتل آيات من القرءان فكان أول قول له حين رآهم لا إله إلا الله، إنا لله وإنا إليه راجعون، لا إله إلا الله، فقيدوه وأخرجوه، وخرج معهم في سكينة وفرح ووقار، قد ألهمه الله الصبر والثبات في لحظة لا يثبت فيها إلا المؤمنون، خرج وهو يردد لا إله إلا الله، وسلم على إخوانه واحدًا بعد الآخر وهم يرددون السلام ويقولون: لا إله إلا الله، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة، فانطلقوا به إلى المكاتب، ومكث هناك ساعة، قال لنا من كان معه إنه توضأ فيها وصلى، ومكث يذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وقد حاول بعض الضباط أن يعطيه طعامًا، فقال له: إني صائم والحمد لله، فقد كان يصوم يومًا ويفطر يومًا. وكان من فضل الله عَزَّوَجَلَّ أن جاءه تنفيذ الحكم وهو صائم فسبحان أرحم الراحمين، وفي تمام الساعة السابعة صباحًا مَرَّ من وراء المبنى الذي نسكن فيه متجهًا إلى حجرة الإعدام فرأيته ورآني فقال لي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، لا إله إلا الله.

فقلت له: أبشر يا أخي الحبيب بعجائب رحمة الله: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

ثم انطلقوا به إلى حجرة الإعدام ونوافذ حجرات أصحابه تطل على هذه الحجرة، بحيث يرون عن قرب معظم مراسم الإعدام، ويرونه في آخر لحظات عمره، قبل الدخول للتنفيذ، فأوصاهم بدوام الطاعة والذكر والثبات على الإسلام حتى الممات وأوصى أخًا له بكتابة أوراق صغيرة، يأمر بقراءة سورة يس، والدخان، والرحمن، والواقعة، والحشر، وتبارك.. وأن يوزع تلك الوريقات على كل من في المكان وأمرهم أن يقرأوها بترتيل وتدبر؛ لأنه كان يعلم أن الدال على الخير كفاعله، ثم استدار إلى أحب إخوانه إليه وقال: لا تنس قيام الليل يا فلان، ثم سجد شكرًا لله عَزَّوَجَلَّ بعدها لقنه الشيخ، ثم هرول إلى الحبل، وما هي إلا لحظات حتى فاضت روحه إلى بارئها.

تغمده الله عَزَّوَجَلَّ بواسع رحمته.. وكان من فضل الله عليه أنه رأى قبل موته بأيام أمه في رؤيا وهي تقول له: يا بني اعلم أنني راضية عنك.

وهذه من المبشرات له برحمة الله عَزَّوَجَلَّ[1].

---

(١) «قصص التائبين».

قاتل صديقه

قال أبو عبد الرحمن: اسمه محمود، شاب أبيض الوجه، وسيم، مهذب الحديث، رقيق الكلام، من يراه لا يصدق أنه محكوم عليه بالإعدام لشدة أدبه وحيائه، جمع الشيطان بينه وبين شاب بصداقة لكنها لم تكن على بصيرة الإيمان، بل كانت على طريق الخزي والذل والهوان، كانت صداقة في سبيل الشيطان.

تشاجر يومًا هو وصديقه فضربه صديقه فجرحه جرحًا شديدًا، ولما برأ أراد أن ينتقم لنفسه ويأخذ بثأره، فترصد لصديقه فقتله، وكانت هذه نهاية الصداقة، التي لم تكن على تقوى الله عَزَّوَجَلَّ.

لقد كان متعطشًا للعلم، يريد أن يعرف ربه، وحقه عليه، وكيف السبيل إلى التوبة الصادقة، أسئلة كثيرة كان يلقيها عَلَيَّ كل يوم، فلا يمر عليه يوم حتى يتعلم فيه شيئًا جديدًا.

قال لي ذات يوم: أنا أحبُّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حُبًّا شديدًا، وأنا أريد أن أقرأ عنه، وأتعلم سيرته، وأعرف أخباره.

فكنت أحدثه عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكان إذا سمع سيرته بكى، فأعطيته كتاب «الرحيق المختوم»، وهو كتاب في السيرة فقرأه مرة بعد مرة وكان يتأثر جدًّا بتلك القراءة، وكانت علامات الفرح الممزوج بالحزن تبدو في وجهه، فرح بعثوره على نفسه بعد الضياع، وحزن على ما ضاع من العمر في سبيل الشهوات والملذات، جاءني ذات يوم وهو فرح مسرور فقال لي: إني رأيت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في المنام، فقد كنت أقف في الصحراء، وكان يقبل عليَّ بوجهه ويتقدم نحوي ويبتسم، ففرحت له بتلك الرؤيا.

وأراد أن يتعلم التجويد لتنفيذ أمر الله القائل: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

فعلمته، وكان شديد الحرص على أن يتعلم، حتى وصل إلى درجة طيبة.

وذات يوم جاءني مرة أخرى بفرح شديد من الأول ثم قال لي: لقد رأيت الليلة في المنام أنك تجلس معي على سرير عالٍ، ومعك مصحف وأنت تعلمني القرءان، فدخل علينا رجلٌ كث اللحية، أبيض الوجه، عظيم الجسم، وبجانبيه رجلان، وقع في قلبي أنه رسول الله ﷺ فتقدم نحوك فسلم عليك بشدة ثم سَلَّم عليَّ، فدعوت الله أن تصدق رؤياه، وأن يكون حقًّا رسول الله ﷺ هل يشقى رجل سلم عليه رسول الله ﷺ، فقلت له: يا أخي إن كان الأمر كذلك فيجب عليك أن تشكر الله بحسن الثبات على دينه حتى الممات؛ لعلك تسلم يوم القيامة من عذاب الله، فقال لي: أريد أن أصوم كفارة القتل.

فقلت له: صُمْ على بركة الله، فصام شهرين متتابعين، وكان لا يزيده الصيام إلا قوة في الدين، وزيادة في الإيمان.

والنوم في عنبر الإعدام (الحياة) عزيز لأنهم ينتظرون الموت في كل لحظة، فمن أيسر العبادات عليهم في هذا العنبر هو قيام الليل، بتوفيق الله وتيسيره لهم، فإذا أردت أن تنظر إلى محمود في ساعة من ساعات الليل وجدته، إما قائمًا أو راكعًا أو ساجدًا، أو قارئًا للقرءان ولذا فإنه يقول: أنا لست في سجن بل أنا في روضة من رياض الجنة[1].

اسأل الله أن يدخلنا جميعًا الدرجات العلى من الجنة..

(١) «قصص التائبين».

التائب صاحب المغامرات

قال أبو عبد الرحمن: هو شاب من شباب هذا العصر المترفين، كان مغرمًا بأفلام هوليود وسهرات الديسكو ولعب البلياردو، يحب المغامرة، جاءه صاحب له وقال: إن رجلًا من رجال الأعمال أخذ مني مبلغ مائة ألف جنيه، وأريد أن تأتي معي لنهدده ونضغط عليه حتى يؤدي إليَّ حقي، فهرول معه، ولأنه كان شابًّا طائشًا فقد انقلب التهديد إلى تنفيذ، فقتل رجل الأعمال وسائقه، وقبض عليه، وحكم عليه بالإعدام، وكانت الدنيا تجري في دمه، فكان يعذب بفقدانها، وكانت الطاعة ثقيلة عليه.

ثم بفضل الله عَزَّوَجَلَّ تغير حاله تمامًا، وصارت قرة عينه في الصلاة، فلقد كان يطيل الصلاة من الليل ويبكي حتى يُسمع نشيجه من بعيد، وحُبِّبت إليه الخلوة، وكان له وِرد من القرءان لا يتخلف عنه، وكان ورده في الصلاة خلاف ورده خارج الصلاة، حتى اشتاق إلى الله عَزَّوَجَلَّ شوقًا شديدًا، وكان تنفيذ الإعدام يومي الأحد والأربعاء من كل أسبوع في بداية الأمر، ثم زادت أيام التنفيذ بعد ذلك.

فكان يقف في يوم الأحد والأربعاء يقول: فرجك يا رب، ثم يحزن إذا لم يكن هو المقصود، وكان يقول لي: لقد ازداد شوقي إلى ربي، وأخشى أن يقتلني الشوق فكنت أصبره وأقول له: اعلم أن كل يوم تعيشه فهو هدية لك من الله عَزَّوَجَلَّ فإن كنت محسنًا زاد إحسانك وإن كنت مسيئًا تبت إليه فكان يتصبر قليلًا، وكان أحيانًا يقول: اللهم عَجِّل بقبضي إليك يا أرحم الراحمين.

وفي الأسبوع الأخير رأى رؤيا فقال لي: رأيت كأني أسحب ثعبانًا ضخمًا وطوله خيالي، واستمر سحبه أكثر من عشر دقائق، فلما وصلت إلى رأسه وجدته في الرمق الأخير، فرميت به فمات.

فقلت له: يا أخي يبدو أن هذا الثعبان عدوك من عملك السيئ، ولعل الله عَزَّوَجَلَّ سلطك عليه بالعمل لتقتله فلا يضرك إن شاء الله فلما سمع ذلك فرح جِدًّا.

وفي اليوم الموعود الذي كان ينتظره بالأشواق وبعد صلاة الفجر وهو يقول أذكار الصباح وقف على باب زنزانته ينظر من شراعته ينتظر الفرج.

وقد جاءه الفرج فناداهم قبل أن يصلوا إليه فقال: تعالوا أنا ها هنا أنتظركم منذ زمن، ثم استدار لهم وجعل يديه خلف ظهره ليقيدوه، وخرج معهم يتنفس الصعداء، ولسان حاله يقول: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وسلم على إخوانه فردًا فردًا قائلًا: السلام عليك يا فلان. لا إله إلا الله، وظل يرددها وصلى ركعتين سنة القتل ثم لقنه الملقِّن.

وظل يردد «لا إله إلا الله»، وهو يتقدم في ثبات نحو حجرة الإعدام. ومن كان آخر كلامه «لا إله إلا الله» دخل الجنة[1].

(١) «قصص التائبين».

الهجرة والتدبير الإلهي

الحمد لله خلق فسوى وقدر فهدى، وأنزل الشرع وقدر له البقاء، وبعث نبيه بالهدى ودين الحق، وهدى له رجالًا استجابوا الدعوة الحق فقاموا معه خير قيام حتى نشر الله الإسلام في ربوع الأرض.

والله القادر هيأ لدينه الكون وأعده لاستقباله أتم إعداد، فكان من ذلك حرس طريق الوحي من كل مسترق للسمع: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨-٩]، فقدر الله سبحانه لنبيه الكريم ودينه القويم بلدًا لا تغلق أبوابها عن داخل أو خارج - وهي مكة - ليبدأ بدعوته فيها، فانتشر خبر دعوته إلى الناس في الآفاق، فسمعوا به، ولم يستطع من كره دعوته من عظماء مكة ورؤسائهم أن يغلقوا أبواب بلدهم ليمنعوا دعوته من الانتشار، وكان سبب تقدير رب العالمين أن جعلها بلدًا غير ذي زرع عند بيته المحرم، فأما غياب الزرع فجعلهم يألفون رحلة الشتاء والصيف، وأما البيت الحرام فجعل أفئدة من الناس تهوي إليه. فبعد أن بلغت الدعوة بمكة مبلغها وتكونت من المؤمنين زمرة طيبة قدَّر رب العالمين لنبيه عند العقبة من الخزرج من أهل المدينة رجالًا سمعوا منه دعوة فاستجابوا لها، وقالوا: إنه النبي المبعوث الذي بشرت به اليهود، فلا يسبقكم إلى اتباعه، وذلك ما ذكره رب العزة في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

فكأن الخزرج بل الأوس عرفوا خبر النبي الخاتم من اليهود، فكان تقدير رب العالمين بوجود اليهود في المدينة بجوار الأوس والخزرج قد هيأ أهل المدينة للترحيب بدين الإسلام ونبي الإسلام، وكان من أسباب ذلك وجود اليهود، فقدر الله للناس أن

عرفوا الإسلام منهم، بينما كفروا هم ليستحقوا بذلك العذاب، وينشر الله دينه، ويجعل المدينة حرزًا للإسلام والمسلمين.

ومن التدبير الإلهي الذي هيأ الله به المدينة لهجرة نبيه الكريم أن كان العداء بين الأوس والخزرج طويلًا، فنشأ من ذلك العداء أمران هامان جُعلا خير مهد للإسلام بعد مكة، فكانت دار الهجرة:

الأمر الأول - أن القوم كانوا قد تعلموا فنون الحرب، وكانوا قد جمعوا الشجاعة والإقدام، فلما جاء الإسلام ونابذهم الناس العداء قال قائلهم يوم بدر: إنا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله، فكانوا لا يهابون الحرب ولا يخافون السيوف، وكانوا شجعانًا فرسانًا، نصر الله بهم دينه، ورفع بهم لواءه.

الأمر الثاني - أن القوم كانت بينهم مصاهرات، فإذا وقعت الحرب بينهم التقوا بسيوفهم وبينهم الأرحام والقرابات، فسفكت الدماء بأيديهم على ما بينهم من قرابات ومصاهرات فاشتاقوا لسلم يجمعهم فيكفوا أسلحتهم، حتى أن البعض منهم قدم عبد الله بن أبي ابن سلول ليكون ملكًا عليهم؛ لأنه استطاع أن يجنب طرفًا من قومه الدخول في أحد هذه الحروب!! فكانوا يقولون للنبي ﷺ في أول لقاء لهم به عند العقبة: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليه فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

ومن التدبير الإلهي الذي أهل الله به المدينة لتكون دار هجرة لنبيه الكريم أن كانت المدينة دارًا فيها زرع يصبر سكانها على حصارها إذا حوصروا، كما وقع ذلك في

«أُحُد»، وفي «الأحزاب»، بينما مكة لا تستطيع الصبر؛ لأنها غير ذات زرع، فلا تصبر على حصار.

ولقد سبق ذلك تدبير إلهي طويل في طريق الهجرة، حيث أخذ الله أبصار المحاصرين، فلم يروا رسول الله ﷺ وهو خارج حتى وضع التراب على رءوسهم، ولما دخل إلى الغار وأخذ المشركون يبحثون حتى وصلوا إلى الغار، ولكن أخذ الله بأبصارهم، فقال أبو بكر: يا نبي الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا، قال ﷺ: «ما ظنك باثنين يا أبا بكر الله ثالثهما». ولما سار خلفهم سراقة بن مالك طمعًا فيما فرضته قريش لمن يأتي بالنبي ﷺ حيًّا أو ميتًا. قال سراقة: ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها، فتكرر ذلك حتى علم أن الله يمنعهما منه، فعاد وهو يقول لمن يبحث عنهما: قد كفيتكما هذا الطريق ليبحثا في طريق غيره.

تلك لمحات يسيرة من الحماية القدرية لطريق هجرة النبي ﷺ، وإعداده للمدينة لتكون دار الهجرة للمسلمين: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، فمن أطاعه سدد خطاه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤][1].

والله من وراء القصد

(١) «مجلة التوحيد» عدد المحرم سنة ١٤١٩، بقلم الشيخ/ محمد صفوت نور الدين.

«ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة القرآن»

وروي عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه مر ذات يوم في موضع من نواحي الكوفة، فإذا فتيان فسّاق قد اجتمعوا يشربون، وفيهم مغنٍّ يقال له: زادان يضرب ويغنّي، وكان له صوت حسن.

فلما سمع ذلك عبد الله قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وجعل الرداء على رأسه ومضى، فسمع زادان قوله فقال: من كان هذا؟ قالوا: عبد الله بن مسعود، صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: وأي شيء قال؟ قالوا: إنه قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله تعالى، فقام وضرب بالعود على الأرض فكسره، ثم أسرع فأدركه وجعل المنديل في عنق نفسه، وجعل يبكي بين يدي عبد الله بن مسعود، فاعتنقه عبد الله بن مسعود، وجعل يبكي كل واحد منهما، ثم قال عبد الله: كيف لا أحب من قد أحبه الله عز وجل فتاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ من ذنوبه، ولازم عبد الله بن مسعود حتى تعلم القرآن، وأخذ حظًّا من العلم حتى صار إمامًا في العلم، وروى عن عبد الله بن مسعود، وسلمان وغيرهما.

«الصدق منجاة»

يُحكى أن أبا يزيد البسطامي أراد الذهاب إلى بغداد لطلب العلم، فأعطته أمه أربعين دينارًا هي ميراثه من أبيه، وقالت له: ضع يدك في يدي وعاهدني على التزام الصدق فلا تكذب أبدًا، فعاهدها على ذلك، وخرج مع قافلة يريد بغداد، وفي أثناء الطريق، خرج اللصوص ونهبوا كل ما في القافلة، ورأوا البسطامي ربَّ الثياب، فقالوا: هل معك شيء؟ فقال: معي أربعون دينارًا، فسخروا منه وحسبوا أنه أبله وتركوه، ورجعوا إلى كهف كان به كبير اللصوص، ينتظر ما يأتون به، فلما رآهم قال: هل أخذتم كل ما في القافلة؟ قالوا: نعم، إلاّ رجلًا سألناه عما معه، فقال: معي أربعون دينارًا، فتركناه احتقارًا لشأنه، ونظن أن به خبلًا في عقله، فقال: عليَّ به، فلما حضر بين يديه، قال: هل معك شيء؟ فقال: نعم، أربعون دينارًا، قال: أين هي؟ فأخرجها وسلمها له، فقال كبير اللصوص: أمجنون أنت يا رجل؟! كيف ترشد عن نقودك وتسلمها باختيارك؟! فقال له: لما أردت الخروج من بلدي، عاهدت أمي على الصدق، فأنا لا أنقض عهد أمي، فقال كبير اللصوص: لا حول ولا قوة إلاّ بالله، أنت تخاف أن تخون عهد أمك، ونحن لا نخاف أن نخون عهد الله؟! ثم أمر برد جميع ما أخذ من القافلة، وقال: أنا تائب على يديك يا رجل، فقال من معه: أنت كبيرنا في قطع الطريق، واليوم أنت كبيرنا في التوبة، تُبنا جميعًا إلى الله، وتابوا وحسنت توبتهم.

«لا يحيق المكر السيء إلا بأهله»

حُكي أن خدم بعض الملوك التقطوا طفلًا كان مطروحًا بالطريق، فأمر الملك بضمه إلى أهل بيته، وسماه أحمد اليتيم، فلما نشأ ظهرت عليه أمارات النجابة والفطنة، فهذبه، وعلمه، واصطفاه، وقدمه في جميع أعماله وشئون قصره.

وذات يوم، أمره أن يُحضر شيئًا من بعض حجراته، وحين ذهب، رأى جارية كانت مقرّبة من الملك في حال مريبة مع خادم من خدم القصر، فتوسلت إليه أن يكتم خبرها، وعرضت نفسها عليه، فقال: معاذ الله أن أخون الملك وقد أحسن إليّ، ثم تركها وانصرف.

فأوجست الجارية في نفسها خيفة، وتوهّمت أنه سيفشي سرها، فذهبت إلى الملك باكية شاكية، فسألها، فقالت: إن أحمد اليتيم راودها عن نفسها، وهمّ أن يقهرها على فعلٍ منكر، فغضب أشد غضب، وعزم على قتله.

فقال لكبير خدمه: إذا بعثت إليك أحدًا بكذا أو كذا فاقتله، وابعث برأسه إليّ، وبعد قليل أحضر الملك أحمد اليتيم، وقال له: اذهب إلى فلان واطلب منه كذا وكذا، فامتثل وذهب، وفيما هو في طريقه لقي بعض الخدم، فحكّموه في أمر اختلفوا فيه، فأخبرهم بما هو مكلّف به، فقالوا: نبعث الخادم فلانًا ليحضر ما تطلب، حتى تفصل في أمرنا، فأجابهم إلى ما طلبوا.

وذهب ذلك الخادم، وأخبر رئيس الخدم برسالته فقتله وحزّ رأسه، وجاء بها إلى الملك، فلما أبصره وكشف عنه الغطاء رأى رأسًا أخرى، فأمر بإحضار أحمد اليتيم فسأله عن خبره فأخبره بما كان.

فقال له الملك: أتعرف لهذا الخادم ذنبًا؟

قال: نعم. إنه فعل كذا وكذا مع فلانة الجارية، وقد سألاني بالله ربي أن أكتم خبرهما، فلما سمع الأمير ذلك سكن ما به، وأمر بقتل الجارية، وأعاد إلى أحمد ثقته به، واطمئنانه إليه.

تاب اللصوص

خرجت جماعة من اللصوص ذات ليلة تقطع الطريق على قافلة أتاهم خبرها، فلما جَدُّوا في السعي للقائها، وتوغل الليل ولم يعد لهم من جهد أو وسيلة لتبينها، فهي لا شك قد حطت رحالها حتى الصباح، حيث لم يستطع اللصوص تَبَيُّن مكانها، ووجدوا عن بُعْد منزلًا مهدمًا به أثرة من نار، فذهبوا إليه وطرقوا الباب، وقالوا: نحن جماعة من الغزاة المجاهدين في سبيل الله، أظلم علينا الليل، ونريد أن نبيت في ضيافتكم، وأحسن الرجل استقبالهم، وأفرد لهم غرفته، وقام على خدمتهم، وقدم لهم أكل أهل بيته، وكان للرجل ولد مقعد قد شلَّه المرض عن الحركة.

وفي الصباح خرج اللصوص، وقام الرجل وأخذ الوعاء الذي فيه فضل مياههم وباقي اغتسالهم، وقال لزوجته: امسحي لولدنا بهذا الماء أعضاءه، فلعله يشفى ببركة هؤلاء الغزاة المجاهدين في سبيل الله، فهذا الماء وضوؤهم واغتسالهم.

وفعلت الأم ذلك.

وفي المساء رجع اللصوص إلى دار الرجل وقد غنموا وسرقوا وانتهبوا ليقضوا ليلتهم في خفية عن أعين قد تكون تترصدهم، ووجدوا الولد المقعد يمشي سويًّا، فقالوا لصاحب الدار وقد تعجبوا واندهشوا: أهذا الولد الذي رأيناه بالأمس وفي الصباح مقعدًا؟.

قال الرجل: نعم، فلقد أخذت فضل مائكم وبقية وَضوئكم، ومسحته به، فشفاه الله ببركتكم، ألستم غُزاة مجاهدين من أهل الله؟!!

فأخذوا في البكاء، والنشيج، وقالوا له: أيُّها الرجل، اعلم أننا لسنا غُزاة، وإنما نحنُ لصوص قُطَّاع طريق غير أن الله قد عافى ولدك بحسن نيتك، ولقد تُبنا إلى الله توبةً نصوحًا.

وخرجوا يوزعون المال على الفقراء والمحتاجين، وتحللوا من الذنب، وتحرروا من الكذب، وتقدموا إلى جيش المسلمين يلتحقون به؛ ليكونوا فعلًا - كما كذبوا أولًا - غُزاة مجاهدين في سبيل الله.

سفينة النجاة

يقول أحدهم: خرجت ذات يوم، وفي إحدى الطرق الفرعية الهادئة قابلني شاب يركب سيارة صغيرة، لم يرني لأنه كان مشغولًا بملاحقة بعض الفتيات في تلك الطريق الخالية من المارة، كنت مسرعًا فتجاوزته، فلما سرت غير بعيد قلت في نفسي: أأعود فأنصح ذلك الشاب؟ أم أمضي وأدعه يفعل ما يشاء؟ وبعد صراع داخلي دام عدة ثوانٍ فقط اخترت الأمر الأول، عُدتُ ثانيًا، فإذا به قد أوقف سيارته وهو ينظر إليهن، ينتظر منهن نظرة أو التفاتة، فدخلن في أحد البيوت.

أوقفت سيارتي بجوار سيارته، ونزلت واتجهتُ إليه، سلمت عليه أولًا، ثم نصحته، فكان مما قلته له: تخيل أن هؤلاء الفتيات أخواتك أو بناتك أو قريباتك، فهل ترضى لأحد من الناس أن يُلاحقهن أو يؤذيهن؟! كنت أتحدث إليه وأنا أشعر بشيءٍ من الخوف، فقد كان شابًا ضخمًا ممتلئ الجسم، كان يستمع إليّ وهو مطرق الرأس لا يتكلم، وفجأة التفت إليّ فإذا دمعة قد سالت على خده فاستبشرتُ خيرًا، وكان ذلك دافعًا لمواصلة النصيحة، لقد زال الخوف مني تمامًا فشددتُ عليه في الحديث حتى رأيت أني قد أبلغتُ في النصيحة، ثم ودعته، لكنه استوقفني وطلب مني رقم هاتفي وعنواني وأخبرني أنه يعيش فراغًا نفسيًا قاتلًا، فكتبت له ما أراد، وبعد أيام جاءني في البيت، لقد تغير وجهه، وتبدلت ملامحه، فقد أطلق لحيته، وشعَّ نور الإيمان في وجهه، جلستُ معه، فجعل يحدثني عن تلك الأيام التي قضاها في التسكُّع في الشوارع والطرقات، وإيذاء المسلمين والمسلمات، فأخذتُ أسلِّيه، وأخبرته بأن الله سبحانه وتعالى واسع المغفرة، وتلوتُ عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣).

فانفرجت أسارير وجهه واستبشر، ثم ودعني وطلب مني أن أزوره، فهو في حاجة إلى من يساعده على السير في الطريق المستقيم، فوعدته بالزيارة.

مضت الأيام وجعلت أُسوِّف في الزيارة، ولما وجدت فرصة ذهبت إليه وطرقت الباب، فإذا بشيخ كبير يفتح الباب وقد ظهرت عليه آثار الحزن والأسى، إنه والده، سألته عن صاحبي، أطرق برأسه إلى الأرض، وصمت برهة ثم قال بصوتٍ خافت: يرحمه الله ويغفر له، لقد مات، ثم استطرد قائلًا: حقًّا إن الأعمال بالخواتيم، ثم أخذ يُحدثني عن حاله، وكيف أنه كان مُفرطًا في جنب الله، بعيدًا عن طاعة الله، فمنَّ الله عليه بالهداية قبل موته بأيام، لقد تداركه الله برحمته قبل فوات الأوان، فلما فرغ من حديثه، عزيته، ومضيت، وقد عاهدت الله أن أبذل النصيحة لكل مسلم، انتهت.